كريستيان بوبان

# اللّامأمول

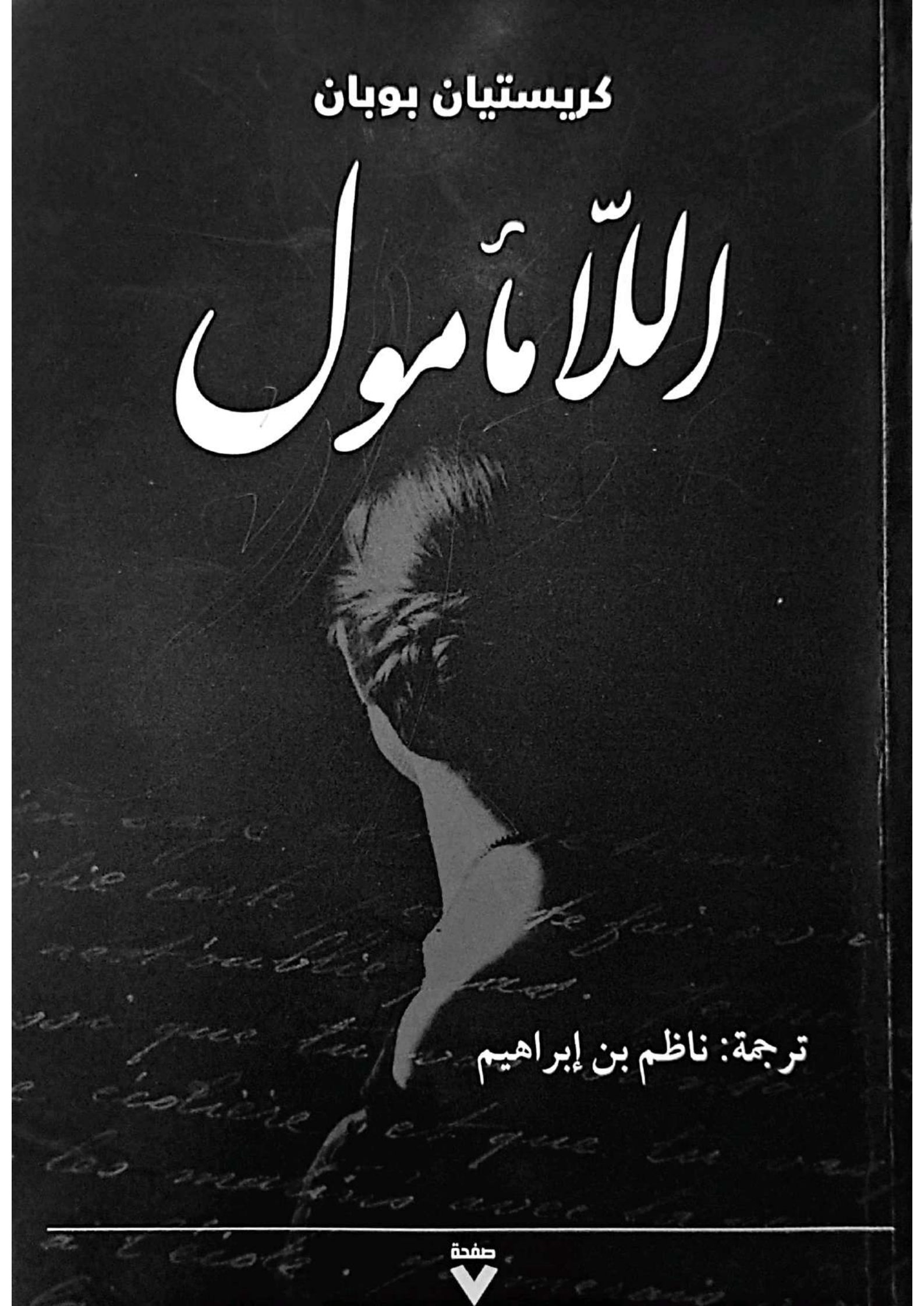

ترجمة: ناظم بن إبراهيم

صفحة ٧

*رسالة إلى ذرّة الضّوء المتسكّعة في شوارع كروزو،*
*في فرنسا، يوم الأربعاء 16 ديسمبر 1992 نحو السّاعة الثانية بعد الزّوال*

سيّدتي،

لم أستغرق في النّظر إليكِ إلّا مع بداية الظّهيرة، وأرجو بكلّ تأكيد أن تعذري شقاوة هذا البوح، لأنّني لم أجد شيئا أفضل للقيام به حينها، بينما أنتظر أمام إحدى مدارس الموسيقى حيثُ أطفالٌ يدخلون محمّلين بآلات أحجامُها في بعض الأحيان أكبر من أحجامهم.

كُنتِ هناكَ قبلي بكثير. جئتِ من أعماق الزّمن السّحيق لتُسرّحي في ذلكَ اليوم خطواتك الأولى والأخيرة على الأرض. ولمّا لم أكن كائنا صباحيًّا إلى حدّ كبير، لم أحظَ ببهجة معرفتك زمن يفاعتك وشبابك. تلكَ الّتي رأيتها تذرع سماءً أرجفَها البردُ، كانت امرأة ناضجة، متعبة بعض الشّيء من ساعات تجوالٍ طويلة، لكنّها كانت بلا أدنى شكّ أجملَ امرأة التقيتُ بها

على الإطلاق. ليس للـجمال روح أخرى غير روحكِ سيّدتي.

كنتُ أنظر إليكِ كما لو كان ليفعل رسّام أو عاشق متيّم. وبينما ألبسَتْكِ ذرّات الضوء المتراقصة في الفراغ فستانَ الخُرافة، استغرقتُ في النّظر إليكِ كما يفعل ذاك الّذي لم يعد يستطيع فعل شيء إزاء حياته أكثر من أن يعيشها بما يكفي من اللامبالاة والفرح المُسترق.

كُنتِ، في الثّانية الواحدة، تجوبين الأماكن كلّهَا مثل طفلة مبتهجة. كُنتِ صورة لحياة حُرّة من نفسها، وافرة الخصوبة، وغيـر مبالية تمامًا بما سوف يأتي. وبينما كان الأطفال، في مدرستهم، يتلقّون درس الموسيقى، كنتُ أتلقّى منكِ درسًا في اللّطافة: أنا أرغبُ في قضاء حفنة الأيّام المتبقّية لي على صورتكِ سيّدتي، وإنّهُ لمن الضروريّ أن يتـرك المرء نفسه للحياة ممتلئا بهذا الابتهاج، وهذا الحبّ المطمئنّ.

نحنُ لا نبحث في هذه الحياة جميعا إلّا عن شيء واحد: نمتلىء به – أن نحظى بقُبلة ضوء على قلوبنا الرّماديّة، أن نعرف عذوبة الحبّ الّذي لا ينضب. أنْ تكون حيًّا هو أن تكون مرئيًّا. إنّنا نرى النّور بمجرّد أن ينظر إلينا أحدهم بحبّ. لا أحد بإمكانه الإفلات من هذا القانون، حتّـى الله الّذي هو، من حيثُ المبدإ، المبدأ المفتـرض لكلّ شيء. وحتّى الكتبُ المقدّسة الّتي نحتفظ بها في الرّفوف أو نقرؤها، فليست سوى خلاصة مجهودات الإله

البائسة كيْ يكون مرئيًّا لنَلمحه، ولو لثانية واحدة، حتّى وإن كان من ينظر إليه رجلا واحدا لا يصلح لأيّ شيء، أو راعي أغنام أثملتهُ الوحدة والخمر الرّديء. كلّ شيء مرتبط بهذه القاعدة. كلّ شيء بالنسبة إلى الله صالح ليكون أداة يلفت بها انتباهنا إليه، بداية من آلة الطّوافين والعواصف بصليلها المعدنيّ، وصولا إلى أنّاتٍ لا تكاد تُسمع لرضيع، في مهد من القشّ، بينما يهدهدهُ التنفّس الثّقيل لحمار ضئيل أو ثور متعَب. وبطبيعة الحال، سيتّضح أنّ المثال الأخيـر هو الأفضل للفت انتباهنا: إنّنا لا يمكن أن نرى إلّا حيثُ ينتفي أيّ ظلّ للقوّة أمامنا.

القوّة عمياء. والمجدُ معتم. في السّابق، كان الأمراء يخرجون من قصورهم في مواكب مهيبة: عربات وخيل وخدم وأعلام واستعراضات من كلّ نوع. ومن هنا جاءت كلمة اكتئاب[1]. أن تكون مكتئبا هو أن تُجرّدَ من موكبك وأن تتقدّم في حياة خالية من أيّ قوّة تحمي وجودك. لا أهميّة للهّ في حلية البرق أو الملكيّة. أمّا اللهّ في نعاسِ رضيع أو في فوضى طلعتكِ البهيّة فعظيمٌ، سيّدتي،

(1) يلعب الكاتب هنا لعبة الجناس اللّفظيّ بين الكلمتيْن الفرنسيّتيْن: Arroi الّتي تعني في هذا السياق الموكب الملكيّ بمختلف مكوّناته، وDésarroi التّي تعني الحزن والقلق وفوضى الأحاسيس. وقد حاولنا الحفاظ على هذا الجناس في العربيّة من خلال اعتماد كلمتيْ "موكب" و"اكتئاب" دون غيرهما. مع ذلك، يمكن، مع شيء من التصرّف في ترجمة كلمة Arroi، أن نعتمدَ الجناس بين "بأس" و"ابتأس" لتصبح الجملة على النّحو التالي: "كان الأمراء يخرجون من قصورهم في بأسٍ مهيب: عربات وخيل وخدم وأعلام واستعراضات من كلّ نوع. من هنا جاءت كلمة ابتئاس". والخياران صالحان في رأينا، على الرّغم من أننا فضّلنا الخيار الأوّل لأنّهُ أكثر التصاقا بالنصّ الأصليّ. (المترجم).

عظيم.

أعرفُ أناسا بإمكانهم جعلك تبتسمين دون أن تكون لك فرصة كبيرة في إبهارهم، وهُم غارقون في عزلتهم وحزن مكتباتهم ومختبراتهم. هؤلاء النّاس يبحثون بجدّ عن كنه الأشياء، عن التفسير النهائيّ للعالم. وفي خضمّ هوسهم التأمّليّ لا يهملون شيئا، باستثناء تفصيل واحد: أنّه لا أحد بإمكانه أن يجد الحقيقة بالقُرب منه، حتّى وإن أراد سجنها في صيغة مّا. لا يمكننا الحصول على الحقيقة. يمكننا فقط عيشها. أنتِ هي الحقيقة سيّدتي: من النور الّذي يأتي، ومن النّور الّذي يمضي. إنّ أعمق سرّ في هذا الوجود موجودٌ في داخلك أنتِ، ومتاحٌ لمن يريد الوصول إليه.

يجب أن أعترف لكِ بشيء: لم أكن أحبّك أبدًا. ولوقت طويل لم أكن أحبّ أخواتك. إنّ رؤية سماء متحرّرة من الغيوم، كان أمرًا مرعبا بالنسبة إليّ. لم أكن أستسيغ من الطّقوس سوى الرّماديّ، وكان ذلك بسبب الكآبة الجاثمة على قلبي. الكآبة، تلك الحشرة الّتي كانت تحفر ببطء في داخلي، مثلما تحفر الدّيدان شأفة جذع عجوز. إنّها مرضٌ يصيبُ الرّوح، ويجد فعاليّته الخاصّة عندما يصل إلى درجة من التأثير يخشى فيها المرء التخلّص منه: إنّ الكئيب هو ذاك الّذي يقتنعُ بأنّهُ خسر كلّ شيء ما عدا كآبته العزيزة الّتي يتمسّك بها بعنف. إنّها مرض ذاك الّذي، حزينًا من عدم كونه محور العالم، يختار، في محاولة طفوليّة لإخفاء غروره، ألّا

يكون شيئا، وأن لا يحتفظ من العالم إلّا بما يبدو له مُعتمًا ومُلبّدًا. لقد أصابني هذا المرض، سيّدتي. لا أعرف بالضّبط كيف حدث ذلك، ولكنّه أصابني.

اليوم أعرف كيف أحبّكِ، وحتّى وإن مازلتُ محتفظا بحبّ السّماوات الرماديّة، فإنّني أفعل ذلك بطريقة أكثرَ هدوءًا: إنّني أحبّها الآن لأنّها ما هي عليه، لا لأنّها ستؤكّد لي كارثة حلّت بروحي.

في العُمق، وحتّى في أثناء نوبات الكآبة هذه، لم أعرف أبدًا ما يجب عليّ فعله بهذه الحياة سوى أن أحبّها، أن أحبّها بجنون وأقول لها: لنكتب رسائل حبّ، لنُضيءْ بياض الصّفحة بالحبر. وبمرور الزّمن، أصبحَ هذا الأمر شغلي الشّاغل: حرفة تقليديّة صغيرة، قريبة من فنّ الرّسم الكنسيّ. الفرق الوحيد أنّني أرسم بالحبـر، بينما يعمل رسّامو الكنيسة بالذّهب، لكنّنا نشترك في البطء الّذي يتطلّبه عملنا، وفي اللّامرئيّ الّذي يجب علينا إظهاره. أنا أحبّكِ سيّدتي، حتّى وإن لمْ تكن لهذا الحبّ أيّة قيمة، ولن تكون. أنا أحبُّكِ إذعانا لقواعد هذا العالم، ومن أهمّها أنّه لا يمكن للمرء أن يستشعر عذوبة هذه الحياة دون أن يتكوّن لديه في الوقت ذاته سخط مطلق إزاء الألم الّذي يحاصرها بمخالبه من جميع الجهات. إنها القاعدة الّتي يتّبعها الرّسّامون عندما يعزّزون قتامة اللّون الأسود في لوحاتهم، حتّى تكون بقيّة الألوان المشرقة، مُشرقة حقًّا.

صحيحٌ أنّ كتابة رسائل الحبّ ليس عملا ذا بالٍ ولا ذا أهميّة اقتصاديّة كبيـرة. لكن، إن لم يفعل أحدٌ ذلك، ولم يذكّر أحدٌ هذه الحياة بمدى نقائها، سينتهي بها الأمر تاركة نفسها للموت – ألا تعتقدين ذلك؟

ها هي بعض الأفكار الّتي ألهمتِني إيّاها، بينما استغرقتُ في النّظر إليكِ، وأنتِ تحملين النّهار إلى الشّتاء القريب، بين ذراعيْك العاريتيْن مثل باقة أزهار يانعة، وفهمتُ فجأة أنّكِ لن تعودي إلى حياتي مجدّدًا وأنّني سأموتُ دون رؤيتك مرّة أخرى: غدًا، ستنزل إحدى أخواتك الأخريات من السّماء لتضيء عتمة حرفتي البائسة، ولن تكوني أنتِ مرّة أخرى.

كيف أقول لك هذا بأكثر بساطة: سأحبّ أخواتكِ كما أحببتُكِ، لأنّ لديّ قلبٌ متغيّـر لفرط وفائه للحياة الّتي أحسَّ بها في المرّة الوحيدة الّتـي مرّت بها الحياة من حياتي. مع ذلك، لا يمكنني أن أسمح لكِ بالذّهاب إلى العدم دون حفظ اسمك هنا، وشكرك على هذه الزّيارة الّتي انتهت بهزيمتك في الخامسة بعد الزّوال من منتصف ديسمبر، بعد أن استعاد الظّلام حقوقه.

وبينما تلألأت بعض النجوم في السّماء، كنتُ أستكنهُ من ضيائها شيئا من روحك المندثرة – الخفيفة المرحة، والعصيّة على النسيان.

# الشرّ

إنّه قذرٌ، حتّى عندما يكون نظيفًا. يغطيّه الذّهب والفضلات البشريّة والأطفال وقدور الطبخ. يبسط سلطته في كلّ مكان، كما لو كان ملكا بدينًا وسخًا، لم يبق لديه شيء يحكمهُ بعد أن غزا كلّ شيء، وسمّم الأخضرَ واليابس بقذارته الفطريّة. لا أحد يستطيع مقاومته. وبفضل جاذبيّته الأبديّة إلى القاع، وإلى حُلكة الوقت الثّقيل، يبسطُ سلطته. يُسكّن الآلام في السّجون. ويعمل بشكل دائم في بعض أجنحة مستشفيات الأمراض العقليّة.

في هذه الأماكن، يجدُ مكانه المناسب: لا ننظر إليه، ولا نستمع إليه. نتركه مثرثرا في الرّكن، ونترك أمامه أولئك الّذين لم نعد نعرف ماذا نفعل بهم، فالأيّام في المستشفيات، كما هو حالها في السّجون، أطول من أن تكون مجرّد أيّام، ولذلك يجب قضاؤها بطريقة مّا، كأن نكلّفه بحراسة مختلّي العقول والسّجناء والمسنّين المنسيّين في دور العُجّز. وبما أنّه أقلّ كرامة من هؤلاء النّاس الّذين

ذبحهم خريف العُمر واختارت القوانين أو الطبيعة أن تجعل منهم ضحاياها، فهو مستغرق على الدوام في سخريته من هذه الكرامة الّتي يفتقر إليها. إنّهُ سعيد بعمله، عمله الّذي يتلخّص في تلويث الألم الموكول إليه وفي ردم كلّ شيء في حفرة واحدة: الطّفولة مع البؤس، الجمال مع الضحك، الذّكاء مع المال. حفرةٌ واحدة يغطّيها زجاج لزج نسمّيه نافذة على العالم. ولكنّه أكثر من أن يكون نافذة. إنّه العالم متكدّسا في كومة واحدة، إنّه العالمُ في الضوء البائس للعالم، وفضلات العالم الملقاة في كلّ ثانية على سجّاد غرفة الجلوس. صحيحٌ أنّهُ بإمكاننا أن ننبش فيه، وأن نجد في بعض الأحيان، وخاصّة في سويعات اللّيل القليلة، عبارات جديدة، ووجوها مفعمة، ففي مصبّات النفايات الكبيرة يمكن للمرء أن يعثر على الكنوز، لكن، لا فائدة من الفرز هنا. فبسرعة كبيرة، تأتي حاويات القمامة، وبسرعة أكبر يفرغها المكلّفون بالتعامل معها في المصبّ. هؤلاء، هُم المثيرون للشفقة حقًّا: صحافيّو البرامج التلفزيّة يثيرون الشفقة لافتقارهم التّام للذّكاء والشّجاعة – إلى جانب ذاك المرض المتعلّق بالوقت، الموروث عن عالم الأعمال: حدّثني عن الله وعن أمّك. لديك دقيقة وسبع وعشرون ثانية لتجيبني عن سؤالي. تخيّل أن يكون لكَ صديق فيلسوف، وأن يقضّي يومًا كاملا هناك، داخل ذاك الصندوق الملوّث بالصّور، بعد أن طلبوا منه القدوم للحديث عن الحُبّ. ولأنّنا نخشى أيّ تدخّل يمكن أن يأخذ الوقت الّذي

يستحقّه، خوفًا من أن يصل إلى أيّ شيء. ولأنّه لا يجب أن يحدث شيء، مهما كان الثّمن، ما عدا ما يُربك وما يبعث على اليأس، أيْ لا شيء تقريبا، ندعو بتعلّة هذا الخوف، إلى جانب الفيلسوفِ، عشرين ضيفًا، مختصّين في هذا وخبـراء في ذاك. نعم، عشرون شخصًا، يأخذ كلٌّ منهم، لنقُل، ثلاث دقائق. نحنُ نقول للأطفال إنّ البذاءة تكمن في الكلمات، في حين أنّ البذاءة الحقيقيّة لهذا العالم تكمن في الوقت، في عدم قدرتنا على تمضية الوقت على نحو مغاير للطريقة الّتي ننفق بها المال. لقد صارت لدينا قدرة رهيبة على أن ننتقل بسرعة من الحديث عن كارثة مّا إلى الحديث عن نتائج القمار في سباقات الخيول، ومن الحديث عن الذّكاء العميق الّذي تهبه لنا الحياة، وعمّا تكون عليه هذه الحياة في سـحرها وألمها إلى الحديث عن أطنان المال المتكدّسة في حساب أحدهم صُدفةً، وبسرعة نكون قد وصلنا إلى السّاعة الموالية. المهمّ أن لا يحدث شيء. المهمّ أن لا تقال كلمة في محلّها، وأن لا تتحقّق أيّة دهشة خالصة. أمّا صديقك، فسيبدي، على كلّ حال، شيئا من الانزعاج بعد انتهاء البرنامج، متسائلا عن سبب هذه الكراهية للفكر، وعن هذا الهوس بتقطيع أوصال كلّ شيء، وستقدّم له معدّة البرنامج هذه الإجابة الرّائعة: أتّفقُ معك، ولكن من الأفضل أن أحافظ على مكاني هنا. تخيّل لو أخذ أحدهم مكاني، ألن يكون الأمر أسوأ ممّا هو عليه؟

سيجعلكَ هذا الكلام تفكّر في وجهاء الدّولة الفرنسيّة

وقياداتها خلال الحرب العالميّة الثانية، وفي تلك الشرعيّة الّتي منحها خُدّام الشرّ الورعين لأنفسهم: كان من الضروريّ أن نتولّى بأنفسنا ترحيل اليهود من فرنسا. لقد مكّننا ذلك من إنقاذ بعضهم. إنّها الإساءة نفسها، والتطبيع نفسه مع قوى العالم الّتي تدمّر العالم، والافتقار المطلق نفسه إلى الفطرة السّليمة: ثمّة أماكن يجب تركها مُقفرة. ثمّة أفعال لا يمكننا الإقدام عليها دون أن تهزمنا على الفور، والتلفاز، عكسَ ما يقوله عن نفسه، لا يقدّم أيّ جديد عن العالم. التلفاز هو العالم الّذي ينهار على العالم. وحشٌ مخمورٌ متنمّرٌ، غير قادر على تقديم قصّة واحدة واضحة ومفهومة. التلفاز هو العالم بدوام كامل، العالم حدَّ المعاناة. مستحيلة هي رؤيته في هذه الظروف. مستحيلٌ هو الإنصات إليه.

ها أنتَ هناك، تجلس على أريكتك أو أمام صحنك، ندحرجُ أمامك جثّة ثمّ نُتبعها بهدف لاعب كرة قدم، ثمّ نترك ثلاثتكم مجتمعين: عراء الموت، مع ابتسامة اللّاعب، مع حياتكَ أنت، حياتك المظلمة أصلا. نترك كلّ واحد منكم في طرف من العالم، منفصلين لفرط ما كان اللّقاء بينكم وحشيّا: ميّتٌ لا يتوقّف عن الموت أبدًا، ولاعبٌ لا يتوقّف عن رفع ذراعيْه أبدًا، وأنتَ الّذي لا تتوقّف عن البحث عن معنى هذا كلّه أبدًا. وها نحن سريعا أمام موضوع آخر: تقلّبات جويّة في برُتانيْ، هدوء نسبيّ في كورسيكا. ماذا علينا أن نفعل إذن؟ ما الّذي يجب فعله مع بالوعة

الصّور العجوز الّتي تلتهمها الأموال؟ لا شيء. لا يجب فعل أيّ شيء. إنّها هنا. تزداد جنونًا شيئا فشيئا، ومرضًا بفكرة أن يأتي يومٌ لا تكون فيه قادرة على مزيدٍ من الإغواء. إنّها هنا، ولن تتزحزح عن مكانها أبدا. غُفلٌ هو العالمُ بلا صور. لذلك، ستجدُ دومًا شبابا نشطين مستعدّين لخدمتها، مستعدّين للقيام بالعمل القذر نيابة عنكَ، نيابةً عن الآخرين جميعا، وباسم جميع الآخرين. يجب أن نترك القاعَ في انحداره المستمرّ إلى القاع، أن نترك العالم يواصل مسيرة تحلّله العضويّ. إنّنا نقترب من النهاية. العالم يمضي إلى حتفه، ويجب أن لا نفعل أيّ شيء إزاء احتضاره المستمرّ، وأن لا نحاول خاصّة إصلاح ما يعطب منه. إنّ هذا الأمر أشبه بوضع مساحيق التجميل على وجنتيْن شمعيّتيْن لامرأة ميّتة. لنترُكْ للصّور العمياء فرصة للتكاثر: شيء مّا سيأتي من الأسفل، شيء مّا سيأتي للقائنا. ثمّة في الألم نقاءٌ دؤوبٌ، كما في السّعادة، وهذا النّقاء يسلكُ طريقه تحتَ أطنانٍ من الخيال المتجمّد. وفي الأثناء، ستجدُ الصّور الحقيقيّة، الصّور النقيّة للحقيقة، ملاذها في الكتابة، وفي التعاطف الّذي يكتسبه الكاتب في عزلته.

فاليبور تشوليتش مثلا. كاتبٌ يوغسلافيّ. هذا الرّجل لا يتكبّد عناء التقاط صور جميلة. إنّه يقول ما يراه. والأمر بهذه البساطة عنده. يقولُ شيئا حدث في مدينة مودريشا، في البوسنة والهرسك، يوم 17 ماي 1992. يقوله كما لو كان شيئا أزليًّا. لقد رأى في

فرادة مكان واحد وحدث واحد الجانب الأزليّ من العالم منذ أصبح عالما: هكذا، ستتمّكن من القراءة دون أن تفقد شجاعتك، ودون أن تقول لنفسك: ما الفائدة من كلّ هذا؟ هكذا، ستُعطي للجُملة وقتًا كافيا لتكتب نفسها، ولألم العالم وقتًا كافيًا ليدخل إلى رأسك، حتّى تستكنه معناه.

تقرأ: *كان إيبرو الغجريّ يكسب رزقهُ من إعادة بيع الرّقوق القديمة والقنان الفارغة. كان يملك عَربة خُردة. وكانت عدّة أجيال من سكّان مودريشا قد تعوّدت على سماع صوته في الصّباح الباكر وهو يجرّ جملتهُ الشّهيرة: "نقلُ جميع البضائع! موتى وأحياء!" كان يعيش في كوخ غريب في شارع بالقرب من مستوصف الحيّ. وكانت لديه زوجة صمّاء وابنٌ يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا يعاني من تخلّف ذهنيّ. يوم 17 ماي، عندما غزا الجيش الصربيّ مودريشا، رفض إيبرو الغجريّ الهروب على الرّغم من أنّه كان مسلمًا. لم يشفق أحدٌ عليه. قطع الجنود الصّرب رأسهُ ورأس زوجته وابنه، وكما كان يحدث "أيّامَ العُثمانيّين"، علّقوا رؤوسهم على أوتاد السّياج المحيط بالبيت. حسب ما أخبرنا به الشّهود لاحقا، كانت توجد زجاجة من العَرق وقهوة طازجة فوق الطاولة في باحة البيت. للتّرحيب بالجنود، في حال قدومهم.* تقرأ هذا وتراهُ، هو، وزوجته، وابنه، ومرح القتلة الصبيانيّ، والرؤوس المعلّقة على الأوتاد، والقهوة الطازجة. ربّما سيُريك التلّفاز القهوة، ولكنّهُ سيصرّ على إظهار الرّؤوس، مع

غمغمة من نوع "لقد تردّدنا في عرض هذه المشاهد عليكم، ولكن بعد ذلك، لم يكن لدينا خيار آخر، تقلّبات جويّة في كورسيكا، هدوء نسبيّ في برُوتاني". أمّا أنت، فستبقى في غرفة الجلوس، بذهن متبلدّ، وثلاثة رؤوس فوق الطاولة. هكذا، يكون لديك كلّ شيء – كلّ شيء في نقائه المأسويّ المحض: كأن تُحسن ضيافة من جاءوا لقتلك. إنّ شرَّ التلفاز، ليس كامنا في التلفاز في حدّ ذاته، بقدر ما هو كامنٌ في العالم، وليس اختلاط أمرهما علينا سوى نتيجة لكونهما لا يمثّلان أكثر من كومة من الضياع والعذاب المستمرّ. الشرُّ كامن في العالم منذ الأزل، في رفض الضيافة، نار التاريخ البشريّ المقدّسة الأولى، وقبل ظهور اللهّ نفسه حتّى. هذا هو شرّ العالم، الشرّ المضني في تخمة مجنونة من الصّور: عدم الترحيب بصور الألم الخفيف والعابر، وتجاهل القوانين الأساسيّة للضيافة، والّتي تتطلّب أن نقدّم الماء لمن يأتي من بعيد. أنا أرفّه النّاس، يقول التلفاز، ولا يعرفُ أنّهُ لم يعد مُضحكًا منذ وقت طويل. لا يمكننا أن نقدّم محتوى ثقافيًّا نخبويًّا لجميع النّاس، يقول التّلفاز، ولا يجرؤ أحد على إجابته بأنّ المشكل لا يتعلّق بالثقافة، بل بالذكاء، وهو أمر مختلف تماما. الذّكاء ليس مسألة شهادات علميّة. ربّما بإمكانه أن يوجد معها، ولكنّه ليس عنصرها الأساسيّ. الذّكاء هو القوّة الفريدة الّتي تجعل المرء قادرا على أن يستخرج من ركام حياته حفنة الضوء الكافية ليوجّهها ولو قليلا إلى ما هو أبعد من ذاته – إلى الآخر التائه هُناك، مثلنا،

في الظّلام. أنا أغذّي مشاعر النّاس، يقول التلّفاز، ولا أحدَ يمتلك الشجاعة الكافية ليبيّن لهُ الهوّة الشاسعة بين المشاعر والحساسيّة المبالغة الكاذبة. لا يتعلّق الأمر بي، يقول التلفاز مُجهدًا، إنّهُ الشّعب، أنا أفعل ما يريده الشّعب – وهكذا لا يبقى لنا شيء لنفعله سوى التـزام الصّمت أمام هذا الجهل الخطيـر، جهل التلفاز وصُنّاعه. إنّ كلمة "شعب" من أجمل الكلمات في اللغة الفرنسيّة. إنّها تقول النّقصَ والتعنّت معًا. إنّها تقول نُبلَ المعدمين الّذين أهملهم النبّلاء. كما تقول عكسَ ما يقوله التلفاز بالضبط. وإلى أن يأتي ما يخالف ذلك، ها نحن هنا: يأتي الألم مثل وحش جائع بين ذراعيْ التلفاز الّذي يرميه مباشرة بين ذراعيْك دون إطعامه أو الإنصات إليه أو التبصّر فيه. ولذلك، يغادر الألم مرّة أخرى. يطلب من الحبـر حقّه في اللّجوء في انتظار ذاك اليوم الّذي يجد فيه لنفسه مكانا في كنيسة الصّور – لأنّه من المؤكّد: أنّهُ في يوم من الأيّام، سيكون ثمّة رجلٌ لديه ما يكفي من الذكّاء ليعرف كيف يصوّر زجاجة من العَرق وقهوة طازجة، وسيأخذ هذا الرجل الوقت الكافي ليفعل ذلك، وسيقول ما يعتقدُ أنّهُ عادل أو يصمت، لأنّهُ في بعض الأحيان، يكون من الضروريّ على المرء أن يلزمَ الصّمت ليوصل كلمة عادلة – وليُظهر، ليُظهرَ طويلا، ليُظهِرَ ببساطة، ليُظهِرَ بهدوء، زجاجة من العرق وقهوة طازجة فوق طاولة صغيرة في باحة منزل رجل مُعدم.

# رحلة الصّور

مع نهاية الظّهيـرة، تصلُ إليه، في هوتْ سافوا، في بيته، في مزرعته، في عرينه المقدود من حبـرٍ ومن خشبٍ. تصلُ إلى هناك مثلما تصلُ إلى أيّ مكان، مع نفاد صبر ورغبة في المغادرة في أسرع وقت. كان عدم قدرتك على تخيّل أيّ رحلة لا تكون انعطافة تأخذك من بيتك إلى بيتك، عجزًا يلازمك منذ وقت طويل. أينما حللتَ، وحتّـى عندما تكون برفقة أناسٍ تحبّهم، تجدُ نفسكَ في لمـح البـرق محاطًا بكآبة جدران عزلتك ونوافذها. النّوم هو ما تفتقدهُ. ذاك النعاس الّذي يتملّكُكَ في شقّتك لساعات بأكملها، دون أن تفعل شيئا، أن تقرأ شيئا، أن تكتب شيئا، ودون أن تكون قادرًا، منطقيًّا، على أن تزور أناسًا لتختفي عيناك وصوتك وروحك بمجرّد وصولك إليهم. لا يمكنك أن تطلب من أحبّتك أن يتحمّلوا وجودًا منهكًا وشبه منعدم مثل هذا. الأمر يتجاوز قدرتك على التحمّل. عليكَ أن ترفض قدرًا كبيـرا من

اللّقاءات من أجل الحفاظ على شيء ربّما تكون صيغته الأكثر دقّة: "لا شيء": لا شيء لتفعله، لا شيء لتقوله، ولا شيء لتكونه تقريبا. وفي هذا اللّاشيء، تكتشف قلب الزمن الخفيّ. قلبه المهزوم بدماء العدم الّتي يضخّها في أوردة العالم. إنّها حالة بينيّة تحتاج إليها، خيطٌ رفيع من اللّاشيء بين الضّجر اليائس والفرح الّذي يتمايل فوقه كالبهلوان، الفرح الّذي يتغذّى على وجه التحديد من اللّاشيء، من إلقاء نظرة على سماء اليوم مثلا، من تأمّلها من فراش وهنك النّشط ومن كسلك في الكتابة: ضوء شفيف. أزرق حرّ خفيف. كما لو أنّ الملائكة قد انتهوا للتّو من غسل أثوابهم، وبما أنّهم لا يملكون ثروة أخرى غير الحُبّ، فإنّهم يحملون دومًا الضّوء نفسه، الضّوء الّذي صار شفّافا لفرط ما تمّ غسله. وبينما تنظر إلى هذه الزُّرقة الجميلة، تفكّرُ في ذاك السّواد الّذي سيُطفئها، وتجدُ في هذا الاقتران بين الأزرق والأسود الدّرسَ الفريد المعبّر عن الأشياء الّتي تناسبك، والدّليلَ على انتصار الحياة، حيثُ تُقدَّمُ لنا الأشياء مجتمعة، وحيثُ نجد أنفسنا في كلّ لحظة أمام الأزرق مع الأسود، وأمام الضوء مع الظلام، وأمام القوّة مع الجرح. إنّ الحزن الوحيد الّذي يعترضنا في هذه الحياة يأتي من عدم قدرتنا على تقبّله دون أن نجعلهُ أشدّ قتامة بشعورنا بأنّ شيئا مّا فيه يعود إلينا: لا شيء في هذه الحياة يعود إلينا، ولا حتّى براءة سماء زرقاء. إنّ الفنّ العظيم هو فنّ أن تشكر هذه التخمة من التناقضات كلّما سنح لك ذلك. أمّا الكتابة

فليست سوى حركة هذا الشكّر المضاعفة فوق رقعة داما صينيّة، انحناءةَ تقدير أمام الحياة وهي تقف في معطف العدم الّذي قُدّت بطانتهُ من الحُبّ. نعم ولكن: مَنْ أو ماذا نشكر؟ مَن أو ماذا وراء السّتار الأزرق والأسود؟ هذا ما لم تستطع معرفته أبدًا، مثلما لم تستطع تخمين المكان الّذي تذهب إليه الكلمات بعد أن نكتبها، المكان الّذي يذهب إليه الحبر وهو يتمدّدُ مثل العطر في لحم الورق الأبيض. هذا هو الموضوع الّذي ذهبت من أجله إلى هوتْ سافوا لمقابلة ذاك الكاتب الّذي كُنت تحبّه دون أن تلتقي به. وبطبيعة الحال، دائمًا ما تسير الأمور بطريقة مختلفة عمّا هو متوقّع. تدخل إلى البيت، ولكنّ أوّل ما تقع عليه عيناك ليس هُو، بل هي، مرافقته، وهي تُدير بظهرها إلى النّافذة، ظهرها الّذي تُلهبهُ سماء صغيرة في الخارج. كانت تقف أمام طاولة كيّ الملابس. السّماءُ والطّاولة والغسيل واليدان ووجه هذه المرأة: تتأمّل هذه اللّوحة وتتساءلُ لماذا تبدّدت هيئتها فجأة داخل هالة من الضّوء كما لو كانت مغلّفة بغشاء ذهبيّ شفّاف. تتذكّر في البداية ذاك الحُلم الذكوريّ السّمج بامرأة في الخدمة بشكل دائم، امرأة تهتمّ بشؤون البيت ولا تخرج منه. نعم، ثمّة أولا وقبل كلّ شيء هذا الانجذاب الّذي لا يمكنك استبعاده، الانجذاب الذكوريّ المحض لامرأة تكون ما لم تكنه أيّ امرأة على الإطلاق: وديعة مثل لوحة. لا بُدّ من أنّ الطّريقة الّتي ينظر بها الأزواج إلى زوجاتهم وهُنّ يكوين الثياب هي التّالية: في اللّحظات الّتي

تكوي فيها المرأة الثياب يكون الرّجل متأكّدا من أنّها لن تتركه أبدًا، كما لو أنّ هذا الانشغال العابر هو الضّمان الوحيد لتأبيد وجودها. سيكون ثمّة ملابس تحتاج إلى الكيّ على الدّوام، ولذلك، ستكون تلك الّتي تهتمُّ بهذا الأمر موجودة على الدّوام هي الأخرى. ما يزال هناك الكثير من البريق في هذه اللوحة: كيُّ الثياب هو عمل مثل بقيّة الأعمال، وبالتالي فهو متعب، لكنّ الجانب الخفيّ من هذا الأمر، الجانب الّذي يجعل مَن يكوي الثياب كالسائر في نومه، هو أنّ هذه الحركة تمكّن صاحبها من الشّرود في تأمّلات عابرة. لقد أخطأ الأزواج عندما اطمأنّوا إلى بقاء زوجاتهم قربهم بهذه الكلفة الزهيدة: إنّ تلك الّتي تكوي الثياب هُنا، هي في الحقيقة، في الطّرف الآخر من العالم، تتابع الرّكض اللّانهائيّ وراء قلبها الهارب. ثمّة أيضا نوع من الضآلة في المواد الّتي تلامسها هذه الأيادي الأنثويّة: القطنُ، والصوف، والحرير. وبما أنّ الملابس هي الدّرع الأخير الّذي تحتمي به الأجساد، فإنّ تلك الّتي تعتني بها وتغسلها وتنعشها بالحديد الساخن، تكون كمن يجسُّ أسرار اللّحم البشريّ بيد هادئة مطمئنّة. ماذا ستفعل الآن؟ تسألُ نفسك. ولأنّ الحُمقَ والذّكاء يتبادلان التحايا داخل رأسك، الآن فقط تنفجرُ ضاحكًا وراء ملامح وجهك الثّابتة قائلا لنفسك: هذا يكفي. أنتَ أصلا من أولئك الّذين يميلون إلى النظر إلى الأمّهات كما لو كانوا قدّيسات، لذلك لن تضيف إلى هذا الميل مديحًا آخر لملكوت هذه الزوجة

اللطيفة وهي تتسمّر أمام طاولة كيّ الثياب إلى الأبد. توقّف قليلا، أرجوك، توقّف. أمّا ما سيبقى بعد دهر من طوفان هذا الوله الأحمق، فلن يكون إلا حقيقة السّلام الّذي يمنحنهُ هؤلاء النّساء للعالم دون أن يعرفن ذلك، هؤلاء النّساء اللّائي يعتقدن أنّهنّ لا يهتَممن بشيء غير شؤون الحياة العاديّة، دون أن يفكّرن للحظة واحدة في مدى نُبل هذا الاهتمام. والآن، ها أنت تغيّر اتّجاه نظرك نحوه، ها أنتَ ترى الكاتب الّذي جئت من أجله. لكن، مَن هُو الكاتب بالنسبة إليك؟ قد يبدو هذا غريبا، ولكن الأمر في رأسك لا يتعلّق في المقام الأوّل بالكتابة. الكاتب هو شخص يخوض حربا طاحنة ضدّ ملاك وحدته وحقيقته. حربٌ شعواء لا منتصرَ ولا نتيجة واضحة فيها، حربُ شوارع، شجارٌ حامي الوطيس بين مـجموعة من اللّصوص، ريش يتطاير في جميع الاتجاهات، وأحيانا، كما هو الحال في كلّ حرب، لحظة هدنة. قد يخرج أحدهم من كلّ هذا بكتاب في بعض الأحيان، ولكن لا يحدث هذا الأمر دومًا ولا بالضرورة. لقد صادف وأن التقيتَ بأناس مخبولين بكلماتهم الخاصّة. أناسٌ تجدُ في محادثتهم وكلامهم ذكاءً فريدًا مشعًّا. ذكاءٌ لا يعترف به أحد. وعندما يحاول هؤلاء الكتابة، تختفي كلماتهم، كما لو أنّ الخوف من الكتابة بشكل سيء والاعتقاد في وجود قواعد يجب اتّباعها، يجعلانهم يفقدون فجأة أيّ حقيقة ذاتيّة. هؤلاء النّاس، هم الّذين تعترف لهم بأنّهم كتّاب حقيقيّون. ليس الحبرُ هو ما يصنع الكتابة، بل

الصّوت، الصّوت وحقيقته الوحيدة، الصّوت ونزيف الحقيقة المتواصل في جوفه. كاتبٌ هُو كلّ من يقتفي أثر حقيقته، دون أن يعتمد على شيء آخر غير بؤس هذه الحقيقة ووحدتها. وبهذا المعنى، يكون الأطفال والعُشّاق كتّابًا بالفطرة. ذات يوم، حملتَ بين يديكَ زهرة. كانت عنوان كتاب، عنوانه فحسب: كاتب في الظهيرة. وقبل أن تعرف القصّة حتّى، بدا لك واضحا أنّها ستحدّثك عن كاتب في هذه السّاعات الّتي لا يكتب فيها. الكلمة الثانية إذن – الظهيرة – تحطّم الكلمة الأولى – الكاتب. تولد القصّة من تلقاء نفسها على غلاف الكتاب: يأتي وقت الظهيرة للقاء الكاتب، وفي هذا اللّقاء يولد لغز حقيقيّ: ماذا يفعلُ ذاك الّذي يكتب عندما لا يكتب؟ الجواب عن هذا السؤال – ذاك الّذي في رأسك، وليس في الكتاب – هو الآتي: يواصل الكتابة. ليس بالكلمات ولا بالحبر. ولكنّه يواصل الكتابة دومًا ودون انقطاع. وبالضرورة، سيأتي السؤال الموالي على هذا النّحو: ما هي هذه الكتابة الّتي لا تحتاج إلى الكلمات؟ أو بالأحرى: ماذا يفعل ذاك الّذي لا يفعل شيئا؟ سؤالٌ يثير اهتمامك إلى أبعد حدّ وربّما لن تجد جوابه أبدا، حتّى هنا، في هوتْ سافوا. هذا الرّجل الّذي أمامك يشبه كتبه: دافئ ومتشعّب مثل أغصان شجرة. وما هو عليه في كتبه، هو بالضبط ما هو عليه في حياته – ها أنتَ تراه بالقرب من صورة لا تشبه أيّا من الصّور الّتي قد يسرّ بها إليك، صورة أخفّ من أن تسقط في كتاب، وأكثر جنونا من أن تختبئ

وتنام وراء الحياة: صورة أمّه وهي تهربُ من البيت العائليّ فارّة من سجن كيّ الملابس لتركض فوق جسر لندن، صورة أمّه الشّابة وغير المتعلّمة وهي تهرول في شوارع لندن الكُبرى مثل حيوان مفترس، لتصل وقد انقطعت أنفاسها إلى أحد المتاحف، فقط لتشاهد لوحة، مجرّد لوحة للرسّام جوزيف ويليام تورنر: سماء يلطّخها الضّوء، ومربّع من الصّمت. وما يمكنك أن تكتشفه من هذه الصورة أكثر ممّا قد تعثر عليه في كتبه، فكأنّه يقول لك: أنا ابن امرأة هذا الأزرق السماويّ، وإنّ جنون الأمّهات هو ما يخلّف جنون الكتابة. وتمضي السّاعات، الظهيرة ثمّ المساء ثمّ الليل. وفي اليوم الموالي، يعاود مرافقتك إلى سيّارتك، وقُبيْلَ إغلاق الباب مباشرة، يقدّمُ إليك هذه الصورة الثانية: "ذات يوم، كنتُ في كنيسة هوتكومب، وهي ليست بعيدة عن البيت. لستُ مؤمنا. أنا شيوعيّ، وهذا أمر مختلف تماما – ولكنّه على الدرجة نفسها من البؤس والضياع. شيوعيٌّ أو مؤمنٌ، هما من الكلمات الّتي لم نعد نعرف كيف نقولها. تلك الكلمات الّتي دخلت إلى الوحل، وستعود ذات يوم كما لو كانت جديدة. ستعود عندما يصل أحدهم إلى فكرة بسيطة للغاية، وهي أن يغسلَ هذه الكلمات بضوء عقله، وينظّفها من الأدران من الرأس إلى أخمص القدميْن. وقتها، سنعرف حجم اشتياقنا إليها، مثلما سنعرف كم كانت هذه الكلمات تعرفنا عن ظهر قلب. أذهب إلى الكنيسة لأن لي صديق هناك. أراهُ ثمّ أتركه ثمّ أحطّ بحملي على

أحد المقاعد. اليوم يشارف على الانتهاء. لا أسمع أيّ أبواب تُغلق: أجدُ نفسي فجأة غارقا في الظلام، بينما تشعّ نقطة ضوء يتيمة في الأفق: أيقونة لا تتوقّف عن التوهّج، وجهٌ ذهبيّ لأمّ في السادسة عشر من عمرها. إنّها أمّ المسيح. وليس في أن تكون امرأة مّا والدة المسيح أيّ أفضليّة مقارنة بأن تكون والدة أيّ طفل آخر: ففي كلّ الأحوال، ما تقوم به الأمّهات أمر مستحيل، ومع ذلك فإنهنّ يقمن به على أحسن وجه، وهذا أمر لا يُصدّق، حقّا لا يُصدّق. وبينما أتأمّل في الظّلام جمال صبيّة حُبلى بشكل واضح في السادسة عشر من العمر – نعم، نحن محقّون حينما نقول هذا بكلّ هذه الفظاظة: ثمّة في عينـيْ أيّة امرأة تحمل في أحشائها طفلا، سواء أكان هذا الطفلُ مسيحًا أم قاتلا مأجورا، لهبٌ من الوداعة والرّهبة – بينما أنظر إليها، أسمع لغطًا، وهذا اللغط تحوّل إلى غمغمة، وهذه الغمغمة تحوّلت إلى دفق، وهذا الدّفق تحوّل إلى موجة من الأصوات الذكوريّة المنخفضة المعدّلة على نغمة واحدة: الكهّان يدخلون الكنيسة لتوّهم لإقامة إحدى صلواتهم. قطيع من الأصوات الجهوريّة، جيش من الرّجال الّذين يأتون إلى هنا بجثثهم الضـخمة ليركعوا أمام صبيّة في السادسة عشر من عمرها وقد أضاءها الابتهاج والألم. بإمكانك الآن أن ترى الأمر بوضوح، إنّ ما هو كائن وراء كلمات التسبيح والمديح، وما هو كائن وراء أبعد نقطة من حركة ذاك الّذي يستقبلها وينحني وهو يفعل ذلك، ليس شيئا آخر أكثر بساطة من هذا: وجهٌ طفوليّ

ضائع، وجهٌ خائف ومرتاع إلى درجة أنّ أيّ كلمة ستجعله يهرب بعيدا، ما عدا تلك الّتي تقالُ في أغنية حبّ، أغنية حُبّ ليليّة، تشدوها زرقة في أصوات عشّاقها." في طريق العودة السّريعة، اختلطت صورة كاوية الثياب مع صورة المراهقة الحامل في رأسي. تبادلتا الشكل والألوان ثمّ اختفيتا شيئا فشيئا.

ها أنت في بيتك مرّة أخرى، أمام النافذة المفتوحة، لا تفعل شيئا، ولا تكتب حتّى، لا ترى القدّيسة في قفصها الذهبيّ، ولا الخادمة في سمائها الزرقاء. لا ترى شيئا غير امرأة تائهة فوق جسور لندن كلّها. ليست أمّا ولا زوجة. فقط امرأة تعانق السماء بشغف سؤال لا تبالي بالإجابة عنه: ما هو هذا الحبّ الّذي لا يحتاج إلى أيّ كلمة حتّى ينادينا؟ ما الّذي نكونه حتّى نفرح كلّ هذا الفرح بلوحة بسيطة: مربّع من الضّوء على جدار أسود؟

# الشّاي بدون شاي

الكلمة وراء طاولة، فوق المنصّة. وبينما أنت تجلسُ مع الآخرين في المدرج، تصعدُ إليكَ الكلمات، مضمّخة بعطر الحكمة الرّخيص، ومنمّقة بزخارف الرماديّ من الكلام. خمسمائة شخص بالغ. عدد كبير من النّساء ومن أولئك الّذين يكتبون بينما أجسادهم في المقاعد أشبه بأوراق مطويّة، يدوّنون ملاحظات لن يعيدوا قراءتها أبدا. جديّة لا حدّ لها تعلو الوجوه جميعها، جديّة الإنصات الّتي تشبه أن تجبر نفسك على الاستمتاع بوجبة دسمة دون أن تسقط أيّ شيئا منها خارج الصّحن، جديّة الطفولة المطيعة الساعية إلى أن تتعلّم كما يجب حتّى تظفر بملاحظة جيّدة وتكسب حُبّ المُعلّم. خمسمائة طفل بين الثلاثين والخمسين من العمر، يجلسون في ضعف ذاك الّذي لا يعرف شيئا، متخبّطا في جهله، بينما ينتظر الحقيقة. لقد سبق وأن حضرت هذا النّوع من اللّقاءات، ذاك الّذي تكون فيه الكلمة وراء الطاولة. إنّه موجود في أكثر الفضاءات تنوّعا من المصانع والشركات التجاريّة إلى

الجامعات. وفي كلّ مرّة تحضر فيها لقاء مشابها، كنت ترى البهجة نفسها على وجوه الحاضرين، بينما يعلو الضجر نفسه ملامح وجهك. يا له من صداع تتحوّل إليه اللّغة العارفة بمجرّد أن تصل إلى أذنيك مع الكلمات الافتتاحيّة الأولى لمؤتمر أو درس أو ندوة. ولوقت طويل، لم يكن بإمكانك تجنّب هذه العقوبة، لأنّها كانت جزءًا من عملك. وبما أنّ هذا العمل قد استمرّ لعشر سنوات، كُنت في مناسبات لا تُحصى على موعد مع هذه الكلمات الّتي تسبّب الصّداع. يومان أو ثلاثة أيّام حول طاولة مستديرة، تنظر إلى السّماء من النوافذ – ولم تكن السّماء جميلة أبدًا مثلما كانت في هذه السّاعات من العقاب والتكفير عن ذنب لم تقترفه. مرّة واحدة فقط، تمكّنت فيها من الهروب. اختلقت سببا وقضّيت يوميْن لذيذيْن بعيدًا، بعيدًا جدّا عن الكلمات العارفة والأصوات الجاهلة. في ذلك اليوم، دعاك بعض الأطفال إلى لعبة: أن تشرب معهم كوبا من الشاي. وفي آخر الحديقة، داخل كوخ ضيّق من القصدير المُطرّق، استضافوك على شاي بدون ماء، شاي بدون شاي. شايٌ لا وجود له أصلا، يصبّونه في أكواب بلاستيكية متّسخة ويقدّمونه للضيوف. وبعد أن استجبت برحابة صدر إلى دعوتهم، تذوّقت الشّاي اللامرئيّ ببطء، مقدّما بين الرشفة والأخرى بعض التعليقات لتشاركهم الحوار، في الوقت الّذي كان فيه المؤتمر، على بُعد بضعة مئات من الأمتار، غارقا في الملل والعدم: أكوابٌ ميّتة حول طاولة مظلمة. كان عملك يمنحك

الملل مع المال. وبمجرّد أن تخلّيت عنه بعد عشر سنوات، سلبك العمل المال الّذي كان يدرّه عليك – والملل الّذي كان يتسبّب لك به أيضا. ومنذ ذلك الحين لم تحضر في أيّ مؤتمر آخر. كانوا يقولون لك في بعض الأحيان: يا له من أمر مؤسف، فالّذين من حولك يجدون هذا مثيـرا للاهتمام: أن تقضي ساعات طويلة غارقا في ظلال كلام شخص آخر، دون أن تتحرّك من مكانك. كانوا يرون كلّ الأشياء الّتي تسبّب لك صداعا لا يصدّق، أشياء مثيرة للاهتمام، بل ومفيدة إلى أبعد حدّ. ومهما كان الوضع، مع مهندس في مؤتمر علمي أو مع مدرّس في حلقة تكوين أو مع عالم اجتماع في ندوة فكريّة، ستجدهم يقولون: نحن سعداء بوجودنا هنا. لا ضير في أن نبقى ليومَيْن أو ثلاثة أيّام بعيدا عن البيت ودون أن نضطرّ إلى العودة إليه. ثمّ أنّنا سنستمع إلى أشياء مهمّة، كما أنّ ذلك يكسر روتين أيّامنا العاديّة. ربّما هذا هو ما يزعجك. نعم، لن يكون غيـر هذا: كسر روتين الأيّام العاديّة. وذلك لأنك لا تعرف شيئا أفضل من الأيام العاديّة الّتي تعيشها، ولا تتذوّق شيئا أفضل من هذه العزلة المعتادة في حياة صامتة وبعيدة عن رخام الكلام والوجوه المقابر. الحياة في المجتمع هي أن يكون الجميع موجودين دون أن يوجد أحد حقًّا. الحياة في المجتمع هي عندما يرضخ الجميع لما لا يريده أحد. وحدها الكتابة هي القادرة على أن تأخذك بعيدا عن هذا البؤس. إنّها وسيلة للهرب، وتنويع للوحدة، مثلها مثل الحُبّ أو اللعب – مبدأ في العصيان، وفضيلة

من فضائل الطفولة. فلماذا إذًا جئت اليوم إلى هنا؟ لقد جاء بك إلى هذا المدرج أمران: شيء من المال وشيء من الصداقة، فقد تمّت دعوتك لقراءة نصوصك في آخر السهرة. وستكون هذه القراءة مدفوعة الأجر. الشخص الّذي دعاك هو طبيبٌ نفسيّ يرأس الندوة، ولكنّك لا تراه بعَدّه سلطة، بل باعتباره طفلا. طفلٌ مشاغب في الخمسين من العمر، يهتمّ بشأن ما يراه، ويضحك ممّا يفكّر فيه. من الّذي سيرفض دعوة طفل إذا دعاه؟ مع ذلك، لم يكن المال ولا الصداقة كافييْن لتحسم أمرك. إنّ الشيء الّذي حسم تردّدك حقّا هو الفضول، وهو الّذي أوصلك إلى هنا، إلى مدرج في كليّة الطب. لو كان الأمر مرتبطا ببعض المدرّسين أو الخبراء في مجال الصناعة أو الكتّاب، لما أتيت. أنت تعرف ما يفعله كلّ واحد من هؤلاء في ركنه الخاص، وما الّذي يمكن أن يحدث عندما يجتمعون في قاعة واحدة. غير أنّ الأمر هذه المرّة متعلّق بأطبّاء النفس. أنت لا تعرف عن هؤلاء شيئا غير أنّهم يلمسون الموت بيد، والحياة باليد الأخرى، وأنت متطلّع إلى معرفة ماذا يمكن أن ينتج عن هذا الخليط وكيف يمكن التعامل معه: يدٌ من الجليد، وأخرى من اللهيب المستعر. كان موضوعُ الندوة: "البسيكوثيرابيا الأسَريّة"، أمّا "بسيكو" فتعني النفس، نفسٌ مدفونة تحت الدّم، فكرة يغلّفها اللحم البشريّ، وأما "ثيرابيا" فتعني الرّعاية والمعالجة والشّفاء، وأمّا "الأسريّة" فليست لديك فكرة كبيرة عنها. لقد أصبحت هذه الكلمة، بعد أن تُركت

للصدفة في خيالك، تدلّ على شيء من الدفء، فالاندماج فالتّشرنق – فالاختناق. وهكذا فهمتَ أنّ موضوع الندوة سيكون: معالجة الأرواح المختنقة، شفاء النّفوس المتخبّطة في شرنقاتها. تبدأ الأصبوحة، ويبدأ معها طنين الكلمة وراء الطّاولة. ليس من الاعتباطيّ أن توجد هذه الطاولة بينك وبين الكلمة. الكلمة وجبة ذات صلوحيّة وجيزة، وشيء سريع الزوال. إنّها تتلوّن بمختلف ظروف ظهورها. والكلمات نفسُها، لا تكون الكلماتَ نفسَها عندما تُقال في أماكن مختلفة. تُقال كلمة الحبّ بشكل عابر، في أعقاب خطوة راقصة. تُقال خفيفة، وليس لها شيء لتقوله غير خفّتها. أمّا الكلمة العالمة، فتقال من وراء طاولة، ولا تصلك إلا مثقلة بخشب الطّاولة والكرسيّ ولاهثة من حجم المسافة بينكما. أمّا الحقيقة الّتي تتضمّنها، فتتحوّل بمجرّد أن تصل إليك إلى عبرة أخلاقيّة سمجة أو إلى ملل لا ينتهي. بين هاذيْن النوعين المتناقضيْن من الكلام – كلمة الحُبّ وكلمة العقلانيّة، كلمة السّماء الرحبة وكلمة الطاولة الرّماديّة – قد يعثر المرء على كلّ الأمزجة والتقاطعات الممكنة. هنا، في هذا المدرج، لا شيء يحدث منذ وقت طويل. شخص مّا يقرأ ملاحظاته بعناية وراء المصدح، لينسخ الآخرون ما يقوله في دفاترهم. وبينما تراقب هذه العمليّة المملّة، أخيرا يحدث شيء مهمّ: تأتي تلك الكلمة الّتي لا يمكن نسخها أو تدوينها، تلك الكلمة الّتي لا يمكن إلّا الإنصات إليها. لم تكن هذه الكلمة لتلفت الانتباه لو لم تكن

ممسرحة. طبيبان نفسيّان، رجلٌ وامرأة يصفان على نحو مفصّل لقاءهما بمريضة نفسيّة وعائلتها. فتاة صغيرة تعاني من الهلوسة والهذيان. كانت تسمع أصواتا تتملّكها وتتحكّم بها. وفي أثناء اللقاءات الطبيّة، بعد شيء من التردّد والخجل الطفيف في البداية، كشفت الأسئلة الّتي طُرحت على والديْها الحقيقة البائسة. امرأة تُحبّ الحياة إلى درجة لم يتحمّلها المحيطون بها، امرأة حرّة إلى درجة لا تخضع فيها إلى أيّ قانون – باستثناء قوانين الحُبّ. وبما أنّها كذلك، لم تعد عائلة هذه المرأة ترغب في وجودها. لم يعد لها مكان معنا: سنمحي وجهها واسمها ونطردها من ذاكرياتنا كلّها. لم يعد لها موطن إلّا داخل الصّمت – دمّلة الصّمت الّتي تنتقل من جيل إلى آخر، مرض الصّمت الّذي يتضخّم وينفجر خرسًا في الأصوات – ألما في قلب هذه الطفلة. كان الطبيبان يحلّلان بدقّة ما يقوله الوالدان، ويصمتان بين الفينة والأخرى قبل تقديم الملاحظات الأكثر أهميّة. والغريب في الأمر، أنّ القصّة ليست هي ما يُدهشك. إنّها قصّة عاديّة في النهاية، ولكلّ البيوت جحيمها الخاصّ كما يقولون. لكنّ ما أدهشك حقّا، هو البهجة البادية على وجوه أولئك الّذين يروونها، بهجة مُعدية جعلتهم يفوزون بانتباه جمهورهم – كما لو كانت بقعة زيت تتسّع شيئا فشيئا في قميص المدرج. المريضة هي تلك الّتي تتكلّم ولا تعرف شيئا عمّا تقوله. والأطبّاء هم أولئك الّذين يعتقدون أنّهم يعرفون حقيقة ما يُقال ويبتهجون بتصديق هذه الفكرة. المريضة هي تلك الّتي تأتي

لتطلب المساعدة من الأطباء، فتتحوّل إلى الشخص الّذي يساعد الأطبّاء على الابتهاج بأهميّة أفكارهم ونجاعتها الكبيرة. كان الطبيبان يتناوبنان على الكلمة ويسيّران الحوار. وكان الاستماع إليهما يُشعرك بمتعة ممتزجة بالاشمئزاز. صرت تراهما زوجًا وزوجة. صوتان جميلان متشابهان يقولان الأسوأ، ويبتهجان بفعل ذلك في آن واحد. ما الّذي يصنع من شخصيْن زوجًا؟ ما الّذي يفرض علينا هذه الصورة الزوجيّة بمجرّد رؤية رجل وامرأة معا؟ ليس الأمر مرتبطا بالضرورة بقصّة مشتركة قد تكون بينهما، ولا بانسجام رومنسيّ قد يبدو بينهما حتّى، فالاختلاف لا يمنع هذه الصورة الزوجيّة من الظهور، بل بالعكس، قد يغذّيها في بعض الأحيان. أنتَ الآن تستمع إلى القصة من عائلتيْن مختلفتيْن: عائلة الطبيبيْن وعائلة المريضة. إنّ ما يصنع زوجًا مّا، ليس سريرا ولا بيتًا ولا قصّة مشتركة. ما يصنعُ زوجًا هو الغذاء: الزّوجيّة هي أن يتنفّس شخصان الهواء نفسه وأن يلتهما الغذاء نفسه – المرارة نفسها أو الفرح نفسه. وهذان اللّذان أمامك، ماذا يأكلان؟ إنّهما يأكلان ألم النّاس وبؤسهم. يستمتعان بطعمه ويتغذّيان عليه. الكلمة الّتي وراء الطّاولة، لم تعد تصل إليك الآن. تظلّ الكلمة فوق الطاولة، بينما تراقب أولئك الّذين يأخذونها بأيديهم ويحملونها إلى أفواههم. تراقب أولئك الّذين، بينما يرغبون في المساعدة، يبتلعون أجزاء بأكملها من حقيقة سوداء وكلمات متعفّنة، وفجأة يتملّكك الحنين العنيف إلى غذاء

آخر، وتسكنك الرغبة في الرّجوع إلى تلك الكلمات المرحة تحت سقف من القصدير المُطرّق – إلى ذاك المذاق الرائع، لشاي بدون ماء، وطفولة بدون علاج، وحقيقة لا تُشفى من حقيقتها. تسكنك الرغبة في الرّجوع، إلى الشاي بدون شاي.

# حفلة في الأعالي

تقول لك: المنزلُ في الأعالي، يختفي بين الأشجار. اتبعني. قُد ببطء لأنّ الطريق سيئة. هي تسبقُك، وحيدة في سيّارتها. أمّا أنت، فتواصل السير خلفها، في سيّارة أخرى. كانت الطريق إحدى طرق هضاب فرنسا الوسطى، وأمّا الوقت فكان ساعة متأخّرة من الليل. السماء سوداء وزرقاء. زُرقة رماديّة مع نجوم تنزُّ من تحتها وقد ألهبتها ريح هوجاء عنيفة، ريحٌ جنونيّة غاضبة. تغادر سريعا الطّريق المعبّدة إلى مرتفع وعر: مسلك فلاحيّ سيء يرتفع مع الهضبة لينتهي عند النجوم. تصل إلى البيت أخيرا. بيتٌ تحاصره كلاب الريح المجنونة من كلّ صوب. تدخلهُ فتجدُ فيه جوًّا منعشا وصداقة. فأمّا الجوّ المنعش فكان بسبب أحجاره العتيقة وسلالمه الخشبيّة وغرفه المجوّفة والمستديرة مثل بطن أو خرافة. وأمّا الصداقة، فكانت في الكلمات الّتي سمعتَها، كلمات هذه المرأة الشابّة الّتي تأويكَ هذه الليلة. كانت تحدّثك عن نفسها، أي عن أولئك الّذين تُحبّهم. لقد صُنعنا من هذا، بل إنّنا لم

نُصنع إلا من حُبّ أولئك الّذين نحبّهم، ولا شيء آخر. ومهما كانت حياتنا معزولة عن الآخرين وضائعة في الأعالي الّتي تعبث بها الريح، لن تكون جِدّ قريبة منّا إلّا في حفنة من الوجوه الّتي نحبّها، وفي تفكيرنا المتّجه نحوها، وفي هذه النفحة الدافئة الّتي يرسلونها إلينا ونرسلها إليهم من خلال التذكّر. هي تتكلّم، وأنت تنصتُ إلى أهازيج النّجوم الّتي تومض في فمها. ها أنتَ على بعد مئات الكيلومترات من بيتك، ومع ذلك تشعر أنّك في بيتك، في كلمات المحبّة الهادئة واللطيفة هذه، نعم، أنت تستطيع الإقامة في هذه الكلمات كما لو كنت في بيتك وعلى أرضك. ها هو بيتك أمامك، بلا حجارة ولا أبواب ولا نوافذ، بيتٌ مشيّدٌ في أعالي كلمات قُدّت من الحُبّ، بيتٌ تنعشه ريحٌ من الحُبّ النقيّ. تستمع إليها بينما تنظر إلى هذه الجدران وهذه الأشياء المحيطة بك وهذ الأثاث. أنتَ لا تغادر بيتك كثيرا، وعندما تخرج منه، تفعل ذلك لتكون فريسة لدهشة الآخرين، وحياة الآخرين، وهواجسهم، وانتظاراتهم، وكيف يأكلون، وممّ يموتون، وكيف يعملون وبماذا يحلمون، وما الّذي يضعونه في منازلهم وما الّذي لا يضعونه فيها، وماذا يفعلون مع الحياة الّتي تمضي، وتمضي، ثمّ تمضي. بيت هذه اللّيلة بسيط جدّا، خشنٌ في مظهره، كما لو بُني من أجل الرّيح، أو شُيّدَ خصّيصا من أجل راحتها لتصفّر في حجارته وتغنّي في نوافذه وتتبختر مثل قطّ كسول في أروقته. تخمّن المرأة الشابة أفكارك. تقول لك، نعم، هذا البيت جميل حقًّا.

لقد عثرتُ على جماله الحقيقيّ ذات ليلة صيفيّة مثل هذه، منذ زمن طويل، في الغرفة المجاورة. كان الموت هنا، في هذه الغرفة، وفي قلب الموت، كانت أمّي ممدّدة، وقد وهن العظم منها، وتملّكها التعب. وببذل آخر جهد تملكه، وصلت أخيرا إلى الرّاحة الّتي ترغب بها. تلك الرّاحة الّتي لا نعرف منها شيئا غير الرعب الّذي تمنحنا إيّاه، تلك الرّاحة الّتي نذهب إليها بيدين فارغتيْن إلى الأبد، وبقلب مكسور مثل جوزة بين أسنان حيوان برّي. كانت أمّي هناك، تنام خارجَ الحياة، ولم تعد أمّي منذ تلك اللحظة. لا أعرف كثيرا كيف سأشرح لك هذا. لقد كانت أمّي جوهر قلبي، وها هو هذا الجوهر يتبدّد، وها هو قلبي يسقط دون أن يسنده أيّ شيء ليمنعه من السقوط. كنتُ أؤمن بالله على نحو مُبهم في ذلك الوقت. كنتُ أؤمن به مثلما يؤمن أحدهم بالرّبيع بسبب وداعة ليلك مزهر أو رقّة خيط ضوء دافئ. لكن كما تعلم: نحن نؤمن بالله عندما تكون الأمور على ما يرام، وعندما تسوء نتوقّف عن الإيمان بأيّ شيء، نخاف، بل نمرض من الخوف، نبحث عن مخرج، أظنّك تفهمني، نبحث عن أيّ شيء يخرجنا ممّا نحن فيه، مهما كانت طبيعته. ليس علينا أن نروي لأنفسنا هذه الحكاية، أليس كذلك؟ لا أحد يؤمن بالله حقّا. وحتّى المسيح، كان وجهه يتصبّب عرقا وهو يقترب من الموت. أنا أعرف إنجيلي جيدا، وأعرف تلك الجملة الّتي تقول: "أبانا الّذي في السماوات، اِرفع هذا الألم عنّي". لكن، لنذهب إلى المستشفيات ولنستمع إلى

قصص الحروب: ليس اللهّ هو ما يناديه الجنود الجرحى العالقين في جبهات المعارك. ليس الله هو ما يطلبونه، بل أمّهاتهم. وهنا، أمام قلبي الجريح، لم أستطع مناداة أمّي، وحتّى لو استطعت، فقد بدا لي الأمر بلا جدوى. تخيّل جسدًا هامدًا، يتبدّد من حوله الليل والصمتُ شيئا فشيئا، ثمّ يغمرهُ ضوء صباح صيفيّ ممتزج بكلمات الأهل المختنقة (كنّا كثيرين يومها: أقارب وأصدقاء في عطلة)، ثمّ تقضّ مضجعه ضحكات الأطفال وهم يركضون في البيت كما لو كانوا في غابة، يلعبون الغمّيضة ضاحكين من قدرتهم على الاختباء في الدواليب وزاعقين حين يتمّ اكتشاف أمرهم. تركناهم يلعبون. لم نرد أن يحزن أطفال قد يرغبون رغم ذلك في الحزن. قلنا لهم ببساطة: ها هي الغرفة مفتوحة أمامكم، والدخول إليها ليس ممنوعا. ماتت الجدّة هذا الصباح. ستبقى هنا ليومين ثمّ سنواريها التراب. بإمكانكم أن تلقوا عليها التحيّة. وإذا لم ترغبوا في هذا، فلا بأس بذلك. نحنُ الكبار، نعرف أشياء كثيرة لا تعرفونها، لكنّنا لا نعرف شيئا إزاء ما يحصل الآن، مثلكم تماما. استمعَ إلينا الأطفال باهتمام. لم يدخلوا الغرفة في البداية. نحنُ، الكبار، نخاف من الموت مثل خوفنا من الحياة تقريبا. وفي البداية، تملّك هذا الخوف الأطفال بسببنا. ثمّة جاذبية مفاجئة يخلقها الخوف في دواخلنا قادرة على الوصول إلى قلوب هذه الكائنات البريئة. صاروا يمشون في البيت بأكثر بطء وعلى نحو هادئ تقريبا. ومع ذلك، لم تفارقهم حُمّى العطلة والحيويّة الّتي

تبثّها فيهم. خرجوا بعد الظهيـرة كما تعوّدوا أن يفعلوا في سائر الأيام. ومع عودتهم، حدث هذا الأمر: عودة مليئة بالضحك ومطاردات أحدهم للآخر. سبعة، ثمانية أطفال، أكبـرهم في العاشرة من العمر، وأصغرهم في الرابعة، يدخلون بأذرع محمّلة بأزهار الحقول، أغلبها زنابق زرقاء، وها هم يدلفون إلى الغرفة، ثمّ يفتحون مصاريع النوافذ. تتسلّق فتاة صغيرة سرير الميّتة بينما يمدّ لها الآخرون بالزنابق. تضعها فوق السرير كما اتّفق. يظلّ الجميع طويلا في الغرفة. يجلس بعضهم القرفصاء على السّرير. أمّا البقيّة فيتمدّدون على سجّاد الغرفة. يظلّون هناك لنصف ساعة، أو ساعّة ربّما، يتحدّثون عن الألعاب الّتي لعبوها بالأمس والألعاب الّتي سيلعبونها في قادم الأيام، ثمّ يخرجون من الغرفة مغنّين بعد التداول على مداعبة خفيفة للوجه المتحـجّر في السرير. وهكذا دواليْك طيلة يومين: آلاف الخطوات بين الحقول والرّيح والسرير، آلاف الطّرق بين الزهور والشمس والوجه المغروز في الوسادة البيضاء. حتّى في الليل، كانوا يدخلون إلى الغرفة خانقين ضحكاتهم كي لا نستيقظ، وحَرصنا جميعا على أن لا نتدخّل في شؤونهم. فبعد أن سلبنا الحزن كلّ مقدرة على التفكير في أيّ شيء، ترك لنا فقط المقدرة على الوصول إلى هذه الفكرة: أهمّ شيء هو أن لا نتدخل فيما يفعله الأطفال. لقد أخجلنا ذلك، نعم، أخجلنا نُبل الأطفال، هذا النبلُ الرّاسخ في تصرّفاتهم، وهذه الطّريقة، واعذرني على إثقال كاهلك بالحديث، هذه الطّريقة في

البقاء بالقرب من الإله، الإله الّذي تقضّ ألعاب الصيف مضجعه، إلى أكثر ساعات الليل حلكة. لقد سمحنا لهم إذن بابتكار هذه الطريقة في التغلّب على حزننا، هذه الطريقة في التحليق كما تحلّق الزرازير في سماء الصيف، وفي الحياة بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى. استمّر الأمر ليوميْن. يومان وليلتان وحفلة. حفلة لم يسبق لي أن رأيت مثلها أبدًا. حفلة لم تلوّث الدموع ولم تمنع الألم، ولكنّها مع ذلك، كانت حفلة حقيقيّة. حدث ذلك في اليوم الثاني. اتّجهت أصغر طفلة إلينا. كان الأطفال قد غادروا الطاولة منذ وقت طويل. وبينما كنّا نستمتع بذاك السلام الّذي نشعر به بعد تناول الطّعام، وبتلك المتعة الّتي نجدها في الحديث عن الأمور الجادّة، الجادّة حدَّ البؤس، الجادّة حدَّ التفاهة: مثل السياسة والعمل، جاءت الطفلة إلينا تكاد أنفاسها تنقطع وقد تملّكها السّرور: تعالوا، تعالوا سريعا، الجدّة تبتسم. سرنا وراءها لنـرى الأمر: لقد تغيّر الوجه في يوميْن. صار بسيطا واختفت منه التجاعيد، وفوق الشّفاه، ارتسمت شبه ابتسامة رقيقة. لا: لنحذف "شبه" – لقد كانت ابتسامة حقيقيّة. صحيحٌ أنّها لا تكادُ تُرى بالطبع، ولكنّ اللامرئيّ هكذا دومًا، يقعُ في أكثر النقاط خفّة وضآلة وبُعدًا عن الإدراك، ويكون في متناول الأطفال، دون أن يستطيع الكبار الوصول إليه أبدًا، حقّا، أبدًا. بعد ذلك، أقيمت الجنازة، وبعد أسبوع، جاءت نهاية العطلة. هذه القصّة عمرها خمس سنوات. ومنذ خمس سنوات

وجدَ هذا البيت جماله الحقيقيّ ومكانه الحقيقيّ في الرّيح، وتحتَ النجوم. منذ خمس سنوات، تأتي الرّيح إلى هنا كما لو كانت في بيتها. مُطارَدةً في كلّ مكان، وغاضبة من أن تكون مُطاردةً في كلّ مكان، تأتي إلى هنا لتنعم بسلامها وراحتها وبيتها. منذ ذلك اليوم الّذي ترأست فيه قبيلة من الأطفال جنازة امرأة عجوز، وأعادوها إلى السماء مثلما يعيدون عصفورًا ميّتًا وجدوه مرميًّا على الطّريق، وأنا أتساءل من أين أتتهم كلّ تلك الوداعة الّتي فعلوا بها ما فعلوه، وكلّ ذلك الحب الّذي هو ملكهم وحدهم، وكلّ تلك الرحمة الّتي لم يأخذوها من محيطهم ولا من أيّ شيء معروف في العالم – ومازلت، بعد خمس سنوات من هذه القصّة، لا أعرف من أين.

## أتمنّى أن يظلّ قلبي متماسكًا دون أن تخرّبه الشقوق

الشّجرة أمام البيت، عملاقة في ضوء الخريف الشّاحب. أنتَ داخل البيت، قرب النافذة، تدير إليه بظهرك، ولا تلتفت للتثبّت ممّا إذا كان مايزال هناك – لا يعرف المرء أبدًا كيف يفعل ذلك مع من يحبّهم: نتجاهل النظر إليهم لحظة، وفي اللحظة الموالية يختفون أو يغرقون في الظلمة. حتّى الأشجار تهرب أحيانا. حتّى الأشجار تعرف أمزجة كثيرة للـخيانة. لكن، هذا الّذي وراءك، أنت متأكّد منه، متأكّد من حضوره المضيء. أمّا هذه الشجرة، فقد أصبحت في وقت قصير صديقتك الوفيّة. من بين جميع النّاس، الصّديق الحقيقيّ بالنسبة إليك، هو ذاك الّذي لا يفسد عليك متعة أن تكون وحيدًا، وذاك الّذي يضيء عزلتك دون أن يقاطعها. نعم، هكذا تعرف صداقة رجل أو امرأة أو شـجرة مثل هذه: عملاقة وصامتة. صامتة وعملاقة. ويضاهي صمتها

حجمها الضخم. هذه الشجرة هي واحدة من سكّان القرية الّتي تأتي إليها أحيانا لتقضي فيها بعض الأيّام لا تفعل شيئا، ولا تكتب حتّى، بل لا تكتب أصلا. قرية سانت أوندرا الّتي تتبع إقليم إزار الفرنسيّ. أسفل القرية، أمام بيت آخر، ثمّة شجرة أخرى، ضخمة أيضا، وذات قوام أكثر فوضويّة، ولديك بها علاقة هي الأخرى. شجرة صنوبر تحتفظ بصورتها في محفظتك. إنّها الصورة الوحيدة الّتي تحملها معك. وأحيانا، بسبب التعب الخفيف الّذي نشعر به في أثناء السّفر أو في غياب أحدهم، يُطلعك النّاس على صور يخرجونها من محافظهم. اُنظر، هؤلاء أطفالي، وهذه زوجتي بينما لا تملك أنتَ غير صورة هذه الصنوبرة الّتي لا تظهرها لهم بسبب الكلمات الكثيرة الّتي سيكون عليك أن تقولها: هذه شجرة، ليست شجرتي، كما أنّها ليست في حديقتي. إنها شجرة، وهي أوضح وجه للمرأة الّتي التقطت هذه الصّورة: كانت تغسل الصّحون في المطبخ، رأت هذا المشهد عندما رفعت رأسها ونظرت إلى الخارج من نافذة المطبخ الصّغيرة، فالتقطت هذه الصّورة وأرسلتها إليّ مباشرة. تلك كانت طريقتها في قول: هذا ما رأيته ذات يوم، ذات ساعة، ذات ضوء أغسطسيّ صاخب، ذات حال كان عليه قلبي، قلبي الّذي تغيّر ولم يتغيّر. ها هو العالم، وها هي عيناي في تلك الساعة من ذلك اليوم. أنت على علاقة بهذه الصنوبرة منذ سنوات عديدة. أمّا الشجرة الأخرى، شجرة هذا الصباح، فأنت حديث العهد بها. كانت المرّة الأولى

الّتي رأيتها بها في الصيف الفارط، حيثُ تناولتَ الشاي تحت أوراقها. سحابة ظلّ تتحرّك في فنجان الشّاي. وهذا اليوم هو لقاؤكما الثّاني، في الخريف. الجوّ بارد. بلّور النافذة يفصل بينكما. بلّور النافذة غير كاف للتفريق بينكما. ثمّة هِبة مّا في هذه الشجرة، ثمّة وداعة في حضورها. وداعة انتشرت في كامل أرجاء المنـزل وبسطت سكينتها عليك حتّى وأنت نائم. لقد قضّيت الليلة في هذا البيت، وستغادره اليوم. عندما نزلت إلى المطبخ لتناول فطور الصّباح، كانت المقيمتان الأخريان قد استيقضتا منذ وقت طويل، وقامتا بنزهة صباحيّة في الحقول المجاورة. شربتا معك فنجان قهوة آخر. في الجدار المقابل، لوحة لبُونار. البيت الّذي قضى فيه هذا الرسّام طفولته ليس بعيدا عن هنا، في مقاطعة غراند لامبس. تحدّثت إحداهما عن ذلك. كانت ترتدي ملابس بألوان شاحبة شبيهة بألوان اللوحة، لهبٌ من الأضواء يغطّيها الرّماد، ألوان صيف قديم، ألوان حبّ ضائع. لباس الجنّة التقليديّ: ثوب يشبه حديقة من الليالك والزنابق. الحديث عن الرّسم ليس كالحديث عن الأدب. إنّه أكثر إثارة للاهتمام. الحديث عن الرّسم هو أن تنتهي سريعا من الكلام وأن تعود سريعا إلى الصمت. الرسّام هو شخص يمسح بلّور النّافذة الّتي تفصل بيننا وبين العالم بالضوء، بقطعة قماش من الضوء مبلّلة بالصمت. الرسّام هو شخص يرسل إلينا بلا توقّف صور العالم، صورًا كثيـرة، صورًا أكثر من أن نتمكّن من جمعها والاحتفاظ بها في محفظة لإظهارها من وقت

إلى آخر: ها هو العالم ينبض في قلب شخص غريب. ها هو قلب الشخص الغريب ينبض في قلبي. مات بونار سنة 1947. وكانت الجملة الأخيرة الّتي تركها في دفتره الأخير كالآتي: "أتمنّى أن تظلّ لوحاتي متماسكة دون أن تخرّبها الشقوق. أريد أن أصل إلى رسّامِي عام ألفيْن الشبّان بجناحيْ فراشة". كانت آخر لوحة رسمها لشجرة لوز مزهرة. لوحة بمثابة نفَسه الأخيـر، وجهده الأقصى، وطريقة في إخراج كلّ طاقته لمرّة أخيـرة، وفي جعل كلّ شيء يُزهر دفعة واحدة، وفي الرحيل بلا ندم، دون أن يترك أيّ شيء بداخله. ثمّة طريقتان وحيدتان للتعامل مع الموت، كما هو الحال في التعامل مع الحياة أيضا. وبإمكاننا الهروب منهما بالانغماس في تجربة مهنيّة أو فكرة أو بعض المشاريع، كما بإمكاننا قبولهما – بأن نمهّد لهما الطّريق ونحتفي بمرورهما. سيربّتُ الموت الّذي لا نعرف عنه شيئا على أكتافنا بطريقة سريّة في غرفة معزولة. سينظر إلينا برهة، ثمّ يرمي بنا في ضوء العالم. هكذا يأتي الموت. وأفضل ما يمكننا القيام به في انتظار هذا اليوم، هو أن نسهّل عليه المهمّة على نحو لا يستطيع فيه أخذ شيء معه، لأننا نكون وقتها قد أعطينا كلّ شيء. أفضل ما يمكننا القيام به هو أن لا يجد شيئا بين أصابعه غير بعض أزهار اللّوز. جميلة هي أزهار اللّوز في عينيْ رجل يحتضر. ساحرة هي أزهار اللوز في يديْ رجل يحتضر. أخّاذة هي أزهار اللوز في قلب رجل يحتضر. جميلة مثل شجرة عجوز تغمغم في أيّام سانت أوندرا العاديّة، أيّام هذا

المكان المتقدّس، في مقاطعة إزار الفرنسيّة. الآن، الشابّة الأخرى هي الّتي تتحدّث. وها هي تروي قصّة طريفة في بدايتها. استبدّ بذراعها ألم أخذها إلى طبيب، فأعطاها هذا الطبيب بعض الوصفات للعلاج، بل الكثير منها، إلى جانب الكثير من الحُقن الّتي سيكون عليها أخذها مرّات عديدة في الأسبوع. وبعد مرور أشهر، اعترف لها بأنّ الأمر لم يكن يتطلّب حُقنًا مُطلقا، وأنّهُ فعل ذلك فقط كي يختلق سببا تعود من أجله إليه. وفي كلّ حقنة كان يغرزها في ذراعها، لم يكن يضع أيّ دواء، ولا أيّ شيء أصلا. لا شيء غير الفراغ والغياب. وُلد الحُبّ بينهما على هذا النحو، وبهذه الحيلة، في أثناء اللقاءات المتكرّرة. وكان شغفها به وشغفه بها نتيجة لهذه الحُقن المنتظمة، هذه الحقن الّتي قُدّت من فراغ ومن غياب. كيف يمكن للحبّ أن يأتي من طريق غير هذه؟ وكيف يمكن أن لا يذهب من نفس الطريق الّتي جاء منها؟ طريق الفراغ والغياب. طريق الخوف، خوف الطّبيب الّذي كبر شيئا فشيئا في داخله، خوفٌ من الإساءة إلى العائلة، والصورة الإجتماعيّة، والإله، وكلّ شيء ولا شيء. لقد انقطعت أخباره منذ عدّة أسابيع، بينما يفتك بقلبها ألم لا يمكن تخيّل أيّ علاج له. ثمّة لحظة في الرّسم يعرف فيها الرّسّام أنه قد انتهى من لوحته. وإذا سألتهُ لماذا اختار تلك اللحظة بالذّات، لن تجد لديه أيّ إجابة. إنّه فقط يعرف توقّفه المفاجئ عن الرغبة في تغيير أيّ شيء فيها. يفترق الرسّام واللوحة عندما يعجز كلاهما عن تقديم أيّ شيء للآخر.

عندما تصبح اللوحة عاجزة عن تغذية الرسّام. عندما يصبح الرسام عاجزا عن تغذية اللوحة. يكتمل العمل الفنّي، عندما يقف الفنّان أمام عمله، ويعرف فجأة أنّه سيعود إلى وحدته الأبديّة. حاول بونار دومًا تأخير هذه اللحظة. وفي فراش الموت، أشار إلى أحد أصدقائه بضرورة تعديل شجرة اللوز المزهرة: ثمّة اخضرار يتكثّف في غير مكانه، هناك، على اليسار، غطّه بلمسات من الأصفر المذهّب. وفي الفراش نفسه، كتب إلى صديق آخر عن لوحة أخرى، معلّقة في إحدى قاعات العرض الباريسيّة، بعيدًا عنه، وطلب منه أن يردم عصفورا أخضر في لوحته ويغطّيه بأحد الألوان المائلة إلى السُّمرة. هذه الّتي تتكلّم الآن، تقف أمام حبّها مثلما يقف الرسّام أمام لوحته متردّدًا في إنهائها، مفكّرًا في بعض التعديلات، محاولا تأخير الوحدة الّتي تنتظره. لم تقُل هذه الكلمات لك، ولا حتّى لنفسها. كلماتها تتراقص في المطبخ، ثمّ تترجّل بعيدا عنكم لتجد ملاذها في الشجرة المضيئة، بينما يحطّ عليها عصفور صغير أخضر لا يمكن ردمه. الآن فقط، ترى هذه المرأة باهتمام رسّام: يداها فوق الطاولة، صمتٌ يملأ عينيها، وصرخة حُبّ تختنق في حلقها: أتمنّى أن يظلّ قلبي متماسكًا دون أن تخرّبه الشقوق. أريد أن أصل إلى الحبيب الّذي ينتظرني عام ألفيْن بجناحيْ فراشة.

# لم تعُد تخيفك أبدًا

لم تعُد تخيفك أبدًا. صحيح أنّها ستظلّ خطيرة دومًا. صحيحٌ أنّه لا يمكن التنبؤ بها في هدوئها. لكنّ الخوف قد ذهب الآن، ولم يعُد جزءًا من كينونتها العميقة والمنيعة. لقد انهزم الخوف في ثانية واحدة، متبخّرًا وهاربا وقد تملّكه الضّجر، ضجرٌ يشعر به العاشقون في لحظة مباغتة ينتهي بعدها كلّ شيء. ينهزمُ الخوف إلى أن يأتي اليوم الّذي يكون فيه بينك وبينها خوفٌ. إنّهُ هنا، في مكان مّا مثل قانون خفيّ، يسود العالم في صمت. تأتي جميع المخاوف من الطفولة، لتوبّخها وتعطّلها عن أخذ مسارها الطبيعيّ. يعرف الأطفال الخوف معرفة شخصيّة وحميميّة، ولكنّهُ لا يتمكّن من الانقضاض عليهم في طفولتهم، لأنّهم يعرفون كيف يناورونه وكيف يهاجمونه وكيف يلعبون معهُ حتّى. في الطفولة، أنتَ تخاف من الحشرات ومن ملابس الدّراسة ومن أعداد الامتحانات السيئة ومن الكلاب ومن أشباح العائدين من

الموت. الخوف هو الظلّ الّذي يتركه الكبار في طفولتك. الظلّ الّذي تعرف خطورته وأوقاته وأماكنه، غير أنّهُ لا يوقفك أبدًا. تسقط. تسقط لأنّك تخاف من السقوط. تنهض. تبكي. وفي الثانية الموالية تنفجر ضاحكا، لأنّ الفرح مايزال أقوى من الخوف في هذه المرحلة، ولأنّك ترغب في الحياة من أجل الحياة. الخوف هو الليل، والفرح هو النهار. يتعامل الطفل مع الخوف مثلما يتعامل مع الليل وظلمته الّتي يعجز الوالدان عن إبعادها. يتعامل الطفل مع الخوف مثلما يتعامل مع كلّ شيء. الخوف حقيقة ماديّة في العالم، مثل عشرات الحقائق الأخرى. علينا أن نعرف أنّ حلكة الليل تسرّع من دقّات القلب، وأنّ الوحدة في حُزن أو في أعماق غابة أمرٌ مرعب. علينا أن نعرف هذا، ولكن الأمر هنا لا يتعلّق بما نحن عليه في الدّاخل، بل بما يحدث في الخارج. إنّنا بمعرفتنا هذه، نأخذ معلومة عن العالم. إنّها شبيهة بأن نعرف أنّ رياح الشّمال باردة، وأنّ الثلوج في أعالي الجبال أكثر ارتفاعا من الثلوج في السّفوح. ولذلك، نتعلّم هذه الأشياء ثمّ ننساها، تماما مثلما ننسى في الطّفولة ما نعرفه سريعا، كي نمضي قُدمًا في اللّعب ونواصل تضييع وقتنا مستمتعين بهذه السعادة الكُبرى الّتي يوفّرها لنا تضييع الوقت. من الصعب على الآباء أن يفهموا هذه السّعادة. لا تبقَ مكتوف اليديْن. خُذ كتابا. اِفعل شيئا. حتّى اللّعب يريدونه أن يكون تعليميًّا، لا من أجل اللعب في حدّ ذاته. لا يجب أن نلعب بلا هدف آخر غير اللعب. وذلك

لأنّ الأولياء كبار، والكبارُ هُم أناس خائفون وخاضعون لخوفهم الّذي يعرفونه معرفة ذليلة ومظلمة. لم يعُد الخوف كما كان سابقا، في أماكن معيّنة من العالم. لم يعُد في هالة الخرافة وتشويق الأسطورة وزوايا الشوارع المظلمة. إنّه الآن في أذهان الكبار، في دماء دمائهم، وفي قلوب قلوبهم. إنّه يقودهم خطوة خطوة، ليصل في النهاية إلى الطفولة الّتي لا تعرف الكلل. يصنع الزواج الحزين الّذي يلجؤون إليه خوفا من الوحدة. يصنع الأعمال الشاقّة الّتي يقومون بها خوفا من الفقر. يدفعهم إلى إفراغ حياتهم خوفا من الموت. عندما يخيّم الخوف على الطفولة، يتبخّر فورا. وعندما يخيّم على الكبار يبقى، ويتراكم، كما لو كان ثلجا. ثلجٌ لا يتساقط على العالم بل على أرواح النّاس. عندما يدخل الخوف إلى قلب شخص كبير، يلتحق مباشرة بالخوف الموجود مُسبقا فيه. يلتحمُ بنفسه وينضاف إلى نفسه مثل ثلج رماديّ. هكذا تشلّ حركتك بنفسك. وهكذا تمنع نفسك من الاقتراب من هذا الثلج القذر. تسجن نفسك في البيت والزّواج والعمل والهموم. تعتقد أنّك بحصر حياتك في هذه الأشياء تقلّص من مجال الخوف الحيويّ وتُبطئ من انهيار ثلجه الرماديّ المتراكم في قلبك. تصبح مثل تلك الحيوانات الّتي تتحجّر في مكانها فجأة بسماع خشخشة الريح في الأغصان، غير قادرة على القيام بأيّ حركة، وممنوعة من الذّهاب إلى أبعد ممّا هي عليه. كيف يمكن الخروج من بؤس مشابه؟ كيف يمكن الخروج من مكان لا نتذكّر كيف دخلناه؟

ليس للطفولة بداية ولا نهاية. إنها تسكن في قلب جميع الأشياء. لكن، كيف نصل إلى قلب جميع الأشياء؟ يحدث ذلك دون إرادتنا. يحدث ذلك دون أن نبذل أيّ مجهود بفضل حُبّ أسرع منّا ومن خوفنا ومن خشخشة الرّيح في الأغصان. نعم، هكذا وصلت إليها أخيرا بعد سنوات طويلة من الانتظار والخوف. هكذا وصلت إليها دفعة واحدة وفي غمضة عين. ولم يعد بإمكانك الآن الاستغناء عنها. يقولون لك: أنت تعرف أنّه لا يجب عليك الابتعاد إلى هذا الحدّ، فقد يتسبّب ذلك في موتك. ولكنّك لم تعد تصدّق أيّ شيء من هذا. تجيبهم: دعوها تفعل بي ما تشاء. إنّ ملذّاتها أعظم من أن أفرّط فيها. كيف كان بإمكاني قضاء كلّ هذه الأصياف دونها؟ كلّ هذه الساعات البيضاء والزرقاء بعيدا عنها؟ كانت هنالك كتبٌ طبعا. القراءة هي أكثر شيء يشبهها. ولذلك كنت تقترب منها بحفنة من الكتب الّتي لن تفتحها. إنّها رائعة، بل أكثر روعة من أجمل الكتب. وفي هذه الصّائفة، قرّرت أن تخرج للقائها يوميّا بعد كلّ ظهيرة. تقول: حسنا، سأخرج للسباحة. لكن كلامك كان ليكون أكثر دقّة لو قلت: المعذرة، لديّ موعد، موعد مع المياه الّتي كنت أخشاها ولم أعد أرغب الآن في شيء غيرها. إنّها مثل امرأة، نعم، بل أفضل بقليل من امرأة، أفضل حقًّا. طرقٌ كثيرة تؤدّي إلى حُبّك. بإمكانك أن تتبع نهرا ظليلا أو أن تعبر ريفا مُشمسا للوصول إليه. وأينما حللت، ثمّة السعادة الّتي جئت من أجلها: بحيرة على

بعد خطوتين منك. وسواء أكانت كبيـرة أو صغيرة أو محاطة بالأشجار، وحتّى وإن كانت مياهها غيـر نقيّة وملوّثة في بعض الأحيان، ترمي بنفسك فيها دون أيّة احتياطات، وتتّجه مباشرة إلى القلب، إلى منتصف البحيرة تاركا مسافة متساوية بين ضفّتيْها، بوجه بالكاد يمتدّ إلى السّماء، وجسد ينزلق تحت الماء كما لو كان تحت حرير شفّاف. لم يعد الخوف هنا. لقد رحل مع الفكرة الّتي تحملها عنه. لم تعد الفكرة تسكن روحك. لم تعد في داخلك وصارت في الخارج: تتـرك نفسك للمياه كما لو كانت فكرة تفكّر بنفسها في نفسها دون الحاجة إليك. تسبحُ طويلا في الفكرة الّتي صارت خارجك. تسبحُ طويلا في مياه العالم، بعقل فارغ، وجسد حملت عنه المياه أثقاله فصار خفيفا. وعندما تخرج من المياه، فليس لتتركها، بل لتتأمّلها بشكل أفضل، من بعيد، بتلك النظرة الهادئة الّتي تأتي مع الحُبّ، ولتـرى كيف تمتصّ ضوء العالم، وكيف تغيّـر حركة الساعات اللامرئيّة، وكيف تتفاعل مع أكثـر أمزجة السّماء سريّة. أنت تعرف هذه البحيرة منذ طفولتك، لكنّك نسيتها لاحقا. ومنذ طفولتك، كانت لديك مع الصّيف مشكلة لا تعرف كيف تحلّها. كُنت ترى الصّيف والعُطلة مثلما ترى الزواج والعمل: تعرف كيف يكونان لكنّك لا تجد فيهما أيّة فائدة. أمّا الآن فأنت تعرف الصّيف جيّدًا، وتعرف أنّه لا فائدة منه مثل الحُبّ والفرح. لم تعد تجد الوقت للقراءة والكتابة والاستجابة إلى دعوات الأصدقاء. لم تعد تفكّر في شيء غير المياه. تضيع فيها

عندما تكون بالقرب منك، وتنتظر لحظة رؤيتها مجدّدًا عندما تبتعد عنك. الأمر شبيه بقصّة حُبّ، إلّا أنّه لن يكون هنالك قصّة. أمّا الحُبّ فها هو هنا. ليس له شكل ولا وجه ولا اسم. ولكنّه هُنا. لقد جاء مثلما يأتي أيّ حُبّ، بعد نهاية الأزمنة، بعد نهاية الموت، بعد نهاية الخوف.

# التقاعد في الثلاثين من العمر

ستكون هذه القصّة عن ضوئيْن، ضوئيْن حقيقيّين: أصفر المصابيح وأبيض النيون. حولهما الليل ولا شيء آخر غير الليل. ليل حقيقيّ: الأجساد في الأسرّة، والسيّارات في مواقف السيّارات، والحيوانات في الغابات. نعم، بإمكانك أن تبدأ هذه القصة هكذا. بإمكانك أن تبدأها من النهاية: من امتزاج هذين الضوئين المتباعديْن في المكان وفي الزّمان، واشتعالهما معا في لحظة واحدة في عقلك. أمّا الضوء الأوّل، فكان ضوء النيون العجوز الّذي يعود إلى سنوات بعيدة مضت، كان يأتيك فيها مع نهاية كلّ خريف ليستمرّ إلى شهر مارس من كلّ عام. لقد قضّيت سنوات بأكملها مع هذا النيون المرتعش، ومع بياضه اللّبنيّ وهو يحرّرُ تلك الفتحة البلّوريّة الصغيرة من ظلام اللّيل، ليكشف عن طيف واقف باستمرار في قلب الفتحة. لقد مررت من هناك عديد

المرّات مع أطفال آخرين، وفي أحيان أخرى كُنت تذهب لوحدك، لتقف أمام مستشفى الإعاقات الذهنيّة. كان عبارة عن مجموعة من المنازل المنخفضة والمتناثرة على مرج أخضر. في النهار، كان أكثر شيء يحيّرك هو هذا اللّون الأخضر الّذي لا يتغيّر، هذا العشبُ الّذي يحيل قصره مباشرة على الجفاف، هذا الفراغ النباتيّ اليائس، هذه المياه الخضراء الشحيحة والمضجرة. يأس يتمدّد في السهل. بساط من الاستسلام الأخضر. كان العشب في الارتفاع نفسه دومًا. لم ينمُ يومًا أكثر ممّا هو مسموح له به. لم يتجرّأ يومًا على ملامسة جنون حدائق الطّفولة وانفلاتاتها الجميلة. لم يتجرّأ يوما على أن يموت أو أن تستحيل بعض مواطنه الذّابلة بقعا سوداء. لا بُدّ أنّه ثمّة بُستانيّ يهتمّ بأمره. يجب أن يُكلَّف بستانيّ للعناية بهذا العشب السّقيم مثلما يُكلّف بعض الأشخاص الآخرين للعناية بأصحاب الإعاقات، حتّى لا يجفّ شيء أكثر من اللازم، ولا يرتفع شيء أكثر من اللّازم، حتّى لا يموت شيء ولا يعيش شيء. غالبا ما يقول أولئك الّذين يرون هذا العمل من الخارج الكلمات التالية: يا لها من تضحية. يا لصعوبة الاهتمام بهؤلاء النّاس. لو كنتُ مكانك لَـ.... لكن، بإمكاننا أيضا أن نقول الكلام نفسه للبُستانيّ: يا لصعوبة الاهتمام بهذا العُشب. يا لصعوبة الاهتمام بأخضر بهذا التشابه وهذا اليأس. يا لها من تضحية. يا له من انضباط للتعب، ويا له من إخلاص للضجر. لو كنتُ مكانك لـَ.... لكن، ثمّة شيء آخر يجب قوله عن هذا

الأخضر. نعم، ثمّة شيء آخر يجب قوله: لقد سبق وأن رأيت هذا الأخضر الممتدّ في مكان آخر. نعم، لقد رأيت هذا الأخضر نفسه، وهذه الكآبة الخضراء نفسها، وألوان الوحدة نفسها، وهي تحيط بمنازل أصحابها، مكوِّنة أحزمة صغيرة خضراء تطوّق العائلات وتخنقهم. ومع الأيام المشمسة الجميلة، يعود جحيم الجّزازات. يأخذ الزّوج السعيد جزّازة العشب كما لو كان بطلا أسطوريًّا، وسعيدًا بنفسه وفخورا بأخذ نصيبه الضروريّ من الواجب العائليّ، يشرع في تحويل عدم رضاه عن أسبوع كامل من العمل إلى ضجيج. في الفنّ التشكيليّ، نحصل على اللون الأخضر من خلال مزج الأزرق مع الأصفر. أمّا أخضر هذه الحدائق الخاصّة فليس ممزوجا لا من الأزرق ولا من الأصفر، بل من الرماديّ والأسود. رماديّة أسبوع كامل من العمل، وسواد يوم الأحد الّذي لا يكون يوم أحد أبدًا، بل مجرّد يوم يسبق أسبوع عمل آخر. أيضا، ثمّة شيء آخر يجب قوله عن هذا الأخضر: هذا الأخضر المُروّض، هذه الصرامة الخضراء، تجدها أيضًا أمام البنايات البرجوازيّة الضخمة، وخلف أسوار الفنادق الخاصّة. هنا أيضا، ثمّة الكثير من العشب. هنا أيضا، ثمّة مساحات مهولة من هذا الأخضر الوديع. أخضر يطوّق الإعاقات الذهنيّة مثلما يطوّق ثروات متراكمة من الأموال. وحيثُ يغيب العقل أو يسود المال، ثمّة شيء واحد: بساط من العُشب. مروج صافية خضراء معهودة إلى يديْ بُستانيّ خبير في جزّ العُشب. في ليالي

الشّتاء، عندما تمرّ من أمام المستشفى، لا ترى العُشب. يكون في هذه الأوقات مستريحا في الظّلمة. يعود إلى سواده الأصليّ، بعد إنهاء مهمّته المتمثّلة في إضفاء اليأس على المشهد، وثني كلّ من يرغب في الدخول عن القيام بخطوة واحدة تقوده من هذه الصحراء الخضراء إلى الدّاخل ليـرى عن قرب أولئك الّذين يعرجون في أذهانهم أو أولئك الّذين ينامون فوق أموالهم. ليلا، لا يظهر شيء من مركز المعوقين غير تلك الفتحة قبالة المدخل وذاك الّذي يظهر واقفا من خلالها وقد غمره ضوء النيون الشاحب. ويظلّ على هذه الهيئة لساعات طويلة. رجلٌ ضـخم الجثّة، يرتدي بيجامة، ويقف بيدين مكتوفتيْن بصرامة. يقف موجّها نظره إلى الخارج طوال الساعات الّتي تتلو العشاء الّذي دائما ما يُقدّم باكرًا في هذه الأماكن كما هو الحال في جميع مستشفيات العالم حرصا على راحة الموظفين والطّاقم الطبّي. ثمّة بين وقت الأكل ووقت النوم مساحة مظلمة، مرج شاسع من الوقت. وفي هذه المساحة بالضبط، يقف الرّجل مرتديا بيجامته تحت ضوء كهربائيّ، متمايلا ببطء يمنة ويسرة متأرجحا من قدم إلى أخرى لساعات طويلة. رجل ضخم خلف فتحة بلّوريّة. طيفٌ ورقيّ أسود في إطار لبنيّ أبيض. طفل ضخم يلفّ نفسه بذراعيه مانحا نفسه التهويدة الضروريّة لينتقل من الأكل إلى النوم، والشجاعة الكافية ليمرّ ببطء من دقيقة إلى الدقيقة الموالية. وهذا كلّ شيء. بعد الأخضر المروّع الّذي يطوّق المكان، هذا كلّ

ما يمكن أن تراه من مركز المعوقين: هذا التأرجح من قدم إلى أخرى تحت قمر النيون الشاحب. مرّت السنين، وعادت إليك هذه الصورة كما لو كنت على موعد سنويّ قارّ معها: الرجل الضخم في بيجامته وفي حركة جسمه المستمرّة من القدم اليمنى إلى القدم اليُسرى ومن القدم اليُسرى إلى القدم اليُمنى، لساعات وساعات في فصول الخريف والشّتاء المتتالية. وذات يوم، تمكّنت أخيـرا من الدّخول إلى المستشفى. دخلتهُ بأفضل طريقة ممكنة، دون أن تطلُبَ أو يُطلب منك ذلك. دخلته من خلال صوت هذه الّتي تحدّثك الآن. وهذه الّتي تحدّثك الآن ممزّقة القلب. إنّها تعمل في المستشفى. لا. لم يتمزّق قلبها بسبب عملها. كما أنها لم تتحدّث كثيرا عن العمل، باستثناء إخبارك أنّ المعوقين ذهنيًّا بإمكانهم في بعض الأحيان أن يكونوا أشرارا، وهذا الأمر يطمئنك لأنّه يحوّل غرابة المرضى إلى اختلاف طفيف داخل النوع البشري – اختلاف من داخله وليس من خارجه، كما لو أنّ القدرة على القيام بأفعال شريرة علامة على الانتماء إلى مجتمع واحد وعالم واحد. لكنّ الحديث عن العمل أمر مضجر. لم تكن هذه السّاعات الطويلة الّتي تقضّيها في هذه المباني الّتي يحاصرها اللون الأخضر هي ما حوّلها إلى فتات، وإلى غبار، وإلى رماد. كان الأمر مرتبطا بقصّة حُبّ واحدة. قصّة سيكون عليك الانصات إليها دون مقاطعتها، لأنّها قصّة الضوء الآخر، ضوء المصابيح الصّفراء. المرأة الّتي تتحدّث إليك متزوّجة ولديها أطفال. لكنّك

ترى الأطفال ولا ترى الزوج. إنّه مرض يلازمك، نقص في النظر: أنت لا ترى الزوجيْن زوجيْن أبدا. لا تستطيع رؤية شخصين على كونهما شيء واحد. تراهما دوما شخصًا مع شخص آخر دون أن تتمكّن من رؤية الوحدة الّتي يمثّلانها. ثمّة في داخلك اشمئزاز طفوليّ من أيّ مجتمع، وأي مجتمع يبدأ من شخصين يقرّران أن يقولا بعض العبارات الكارثيّة من قبيل: أنا وزوجي نعتقد أنّ.. أنا وزوجتي اعتدنا أن... في الواقع، النّساء هنّ اللّواتي يردن الزواج. يردنهُ إرادة مطلقة ومجنونة. ويبدو أن الرّجل يخضع إلى هذه الإرادة في النهاية. يدخل المؤسسة الزوجيّة كأنّه يدخل وظيفة جديدة، يتعلّم قواعدها مثل طفل يحفظ دروسه مُرغما وباكيا. ولأنّه لا يتوقّع الكثيـر من الزواج، لا يُصاب الرّجل باليأس ولا تتملّكه أيّ رغبة في الخروج منه حتى وإن كان على حافّة الإفلاس، كمن يتمسّك بالبقاء في وظيفة لم تعد توفّر له أيّ متعة ولكنّها مع ذلك تضمن له جرايته آخر كلّ شهر. أمّا النساء فمختلفات. الرّجال مثل الجميع، والنّساء لا يُشبهن أيّ أحد آخر. تبدو قصّة المرأة الّتي تتحدّث إليك في ظاهرها بسيطة. إنّها قصة شغفها الخاص بشخص آخر يعمل معها في مستشفى المعوقين. لم يكن ثمّة شيء بينهما طيلة أشهر، وذات يوم حدث كلّ شيء بينهما دفعة واحدة. لماذا حدث ذلك في هذا اليوم بالذات، لا في اليوم الّذي قبله أو بعده أو أيّ يوم آخر؟ هذا أمر لا يمكن تفسيره. وعلاوة على ذلك، فهي لم ترغب في

تفسير شيء. ينطوي الافتتان في داخله على ذكائه الخاصّ. عتمة النشوة تقضي سريعا على أضواء ما يجب وما لا يجب. في البداية، بدأت تكذب بشأن أوقات عملها، وصار تأخّرها في العودة إلى البيت يتزايد شيئا فشيئا، ثمّ انتهى بها الأمر مقضية أجزاء كاملة من الليل مع الآخر. بعد ذلك، تحدّث إلى زوجها. أخبرته بما حدث. أخبرته كيف فقدت السيطرة على نفسها بسبب السرعة الّتي حدث بها كلّ شيء. أخبرته أنّها تفكّر في المغادرة، وفي الطلاق. تبدأ القصّة اللامرئيّة من هنا. وهي لامرئيّة على الرّغم من كونها في العراء. لم يفعل الزوج أو يقل أيّ شيء على الإطلاق. لم يصرخ ولم يشكُ ولم يتذمّر. لم يمرض بداء الشتائم ولا الكآبة. صار يقوم بشيء واحد: يشعل كلّ ليلة جميع مصابيح البيت وينتظر. ينتظر في البيت المضيء. كانت تعود إلى البيت بعد أن ينتصف اللّيل. تلتحق به في الغرفة، تتمدّد إلى جانبه وتبكي طويلا في صمت. تتواصل الحكاية على هذا النحو قرنًا ثمّ تتوقّف. تركها الآخر. تركها ولكنّه مايزال هناك. مازال كلاهما في نفس الجناح الّذي يطوّقه اللّون الأخضر، ومازالا يعتنيان بالمرضى أنفسهم في الساعات نفسها كلّ يوم. لقد اخترعنا العمل المأجور كي لا نفكّر في الأشياء الّتي تؤلمنا، وحرصنا أن تكون ساعات العمل متكرّرة بطريقة يوميّة حتّى ننعم بكلّ هذا الوقت الّذي لا نفكّر فيه في ذواتنا وفي وحدتنا وفي الله وفي الآخر وفي كلّ شيء يبدو لنا موجعا أو غير قابل للحل. وهكذا، لم يكن لها أيّ مخرج. بقي

شغفها. صحيح أنّه تحوّل إلى كراهية ولكنّه ما يزال هنا، في مكان مّا، سليما ومعافى. تقول مبتسمة: لم يعد لديّ مكان، لا في المستشفى هناك، ولا في البيت هنا. هناك، خسرتُ كلّ شيء. وهنا، يُقدَّمُ إليّ كلّ شيء. لكنّني أريد شيئا آخر، شيئا آخر غير زوج أو عشيق. في قصص الحُبّ لا توجد غير القصص، أمّا الحُبّ فلا تعثر عليه أبدا. وإذا نظرت من حولي، لن أرى غير الموتى أو الجرحى. لا شيء غير أزواج يتقاعدون في الثلاثين من العمر أو أزواج يقضون حيواتهم في ألم. لا شيء من هذا صار يعنيني، لا النوم في البيت ولا الأرق خارجه. ما الّذي أنتظره؟ لا أعرف. ربّما لا أنتظر شيئا. إنّه لأمر صعب جدّا أن تظفر باللاشيء. عندما تكون صغيرا، يعدونك بشيء. هذا الوعد هو الحياة. إذن لماذا لا نظفر بها؟ ولماذا مايزال بداخلي أمل في تحقيق هذا الوعد؟ لن أستقيل أبدا، ولن أتقاعد أبدا. لم أعد أخرج ليلا، ولكنّني لم أعد إلى البيت منذ وقت طويل. زوجي يعرف ذلك. يواصل الانتظار. يواصل إنفاق الأضواء. لا أحد باستطاعته مساعدتي مثله. لكن، ما الّذي يمكن أن تفعله الطيبة أمام اليأس؟ ظلّت تخبـركَ عن مدى شعورها بالوهن والتعب من نفسها ومن كلّ شيء. كانت تتحدّث عن الموت والرّحيل والبحث عن حُبّ جديد كما لو كانت خيارات متساوية تفكّر فيها بحَيرة شبيهة بتلك الحيرة الّتي نشعر بها عندما نحاول اختيار الفندق الّذي سننزل فيه قُبيْل الخروج في رحلة سياحيّة لقضاء العطلة في بلد

أجنبيّ. ضحكت من نفسها في النهاية. نهضت ووضعت إسطوانة موسيقيّة في الفونوغراف: كونسيرتو لفيفالدي. تستمع معها إلى خشخة الأصوات، ثمّ إلى الغبار المتطاير من انسياب اللحن. هذه الموسيقى تتماشى مع اللّيل المخيّم على المدن وفي الأرواح. موسقى تجعل من الليل هادئا وعميقا، وليل بنفسجيّ بضوئين وحيديْن: جناح في المستشفى، وبيت في المدينة. صورتان تلتقيان وتمتزجان في نار واحدة تتلألأ إلى آخر الأفق المظلم، نار الحياة المستحيلة الممتزج بالمياه التّي يتطلّبها إطفاؤها، بينما تتواصل تلك الحركة الفريدة: التأرجح من قدم إلى أخرى، هذا اللّطف الرتيب الّذي يمنحه المرء لنفسه، هذا الالتفاف على الذات بالذات، وهذه التهويدة الّتي يغنّيها قلب معطوب لقب معطوب.

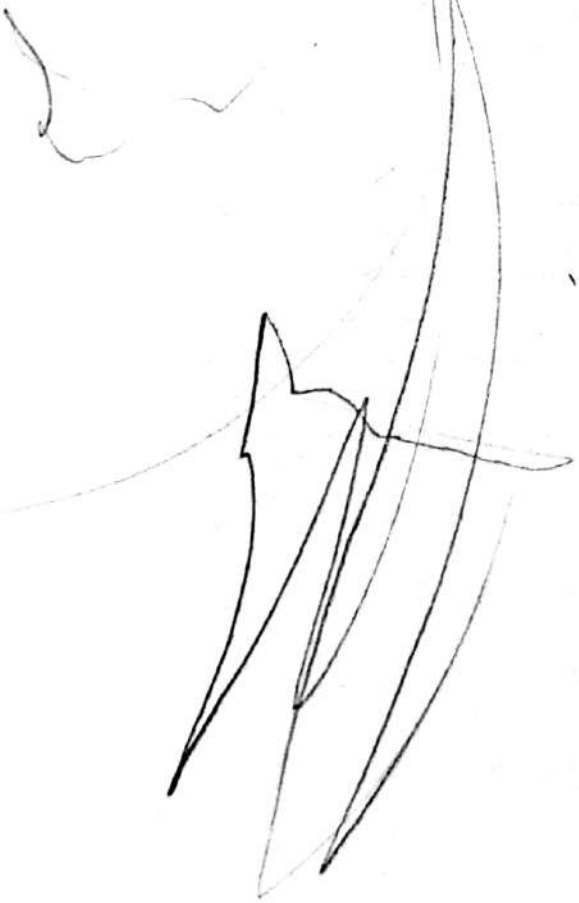

## مينا

مرّة، كتبت عنها نصًّا. أطلعتها عليه ثمّ تخلّصت منه، لأنّه كان ناقصا. صورتها كانت ناقصة في النصّ، ولم يكن بإمكانك تغيير أيّ شيء فيه. لقد أردتَ هذا النصّ بشدّة، غير أنّ الإرادة لا تتماشى مع الكتابة، ناهيك عن الحبّ. نحن لا نقول: "أريد أن أحبك"، بل نقول "أنا أحبّك". وبينما نقول ذلك، نكتشف حُبّا أعمق وأبعد من أيّ إرادة. علّموك في المدرسة بعض الأشياء، وفي العائلة أيضا. أمّا الأشياء المهمّة، فكان عليك أن تتعلّمها وحدك متلعثما ومتحسّسًا طريقك إليها، كما هو حال ما تعلّمته عن هذه الإرادة البائسة الّتي لا تعتمد على شيء غير نفسها وهذا الجنون الّذي في الحياة وهي تحيط بنا مثل حصن. لقد حاولت دومًا أن تتجنّب أولئك النّاس الّذين يعيشون بالإرادة واليقين، أولئك النّاس الواثقون من كلّ شيء، الّذين تخنقهم أربطة الأعناق الّتي ألبسوها لحيواتهم. عندما كنت بصدد كتابة هذا النصّ، شعرتَ

أنّك أصبحت مثلهم. أصبحت كاتبا محترفا، شخصًا يعرف كيف يقوم بالأشياء، ولا يؤمن بشيء غير هذه المعرفة، ولم يعد يسمح للمجهول من الأشياء بالدخول إلى قلبه – هذا المجهول الّذي يقاوم هيمنة إرادتنا القويّة. الاحتراف هو مرض يصيب النّاس بسبب مهنهم، وبسبب قدرتهم على السّيطرة على كلّ ما يقومون به في هذه المهمن، وفي الوقت الّذي يطمئنّون فيه إلى هذه السيطرة، تكون قد حوّلتهم إلى خدّام لها. لقد أردت الكتابة عنها لأنّك أردتَ أن تلتقط شيئا من ضوئها، ولأنّك لم تجد أيّ سبب آخر يدفعك إلى الكتابة: كلّ لحظة قضّيتها بالقرب من كينونتها الاستثنائيّة، تنتظر أن تُقال. والآن بعد أن غادرتك اللّهفة، بإمكانك استعادة اللوحة الّتي لم تكتمل. الآن، وقد صارت قماشة اللوحة عذراء، بإمكانك أن تعود إليها مثلما يعود الرّسام إلى عمله. إنّ ما أخبرتك به في عشر ثوانٍ كافٍ لترسم لوحتك، أمّا بقيّة ما قالته فكان خاطئا – لأنّه كان واضحًا ويقينيًّا، ثمّ أنّه ليس له أيّ تأثير على حياتها. كي يكون شيء مّا صحيحًا عليه بالإضافة إلى كونه صحيحا أن يدخل إلى حياتنا. غير أنّ كلّ ما مرّت به، حدث في غيابه وبعده عنها. هذا يحدث كثيرا: قد يظلّ أحدهم أعزب لعشر سنوات من الزواج. قد يتحدّث شخصان لساعات طويلة دون أن يقولا كلمة واحدة. قد تنام امرأة مع كلّ رجال الأرض وتظلّ عذراء. لقد عاشت هذه اللحظة في حياتها، لستّة أشهر، أو عام، نامت فيها مع رجال الأرض كلّهم، غير أنّ هذه

اللّحظة، مثل غيرها من اللحظات، لم يكن لها أيّ تأثير على حياتها. كانت تستقبل الرّجال في بيتها، أو تذهب هي إلى بيوتهم. وقبل أن تنزع ملابسها، تفرض عليهم دفع الأموال مسبقا. كانت تتحدّث عن هذا الأمر مثل من يتحدّث عن مؤقّت يعوّض فيه موظّفا آخر لبرهة من الزمن: لم يعلّمني هذا شيئا عن الرّجال ولا عن نفسي. وما تعلّمته من هذه التجربة، كنتُ أعرفه مسبقا. ولذلك لا أعتبر هذه الفترة موجودة أصلا. لقد كانت أياما – ستّة أشهر، أو عام – ضائعة. ثمّ تنفجر ضاحكة. ها هو شيء جيّد للقيام به: بعد إزالة كلّ شيء ومحوه من اللّوحة الأولى، النصّ الأول، بإمكانك الآن كتابة النصّ الثاني بالاعتماد على الثواني العشر الّتي قالت فيها بالأمس على الهاتف في ثنايا الحديث ودون إيلاء أهميّة كبيرة للموضوع: "دميتي الأولى، كان اسمها مينا". أنت لا تعرف من تكون مينا. تشرح لك الأمر: إنّه اسم خطيبة دراكولا. وفي الخامسة من عمرها، أطلقت هذا الاسم على دميتها، بعد أن حكى لها والدها قصّة دراكولا الّذي يقتل في الليل وينام في النّهار، قصّة محترف الظّلام العظيم، الّذي لا يمكنه أن يموت، وليس باستطاعته أن يعيش. ثمّ تضيف: لقد حدّثني أبي عن قصص جيمع الكتب والخرافات من هوميروس وشيكسبير إلى بقيّة أفراد العصابة. عندما يخاطب الكبار طفلًا، يقولون كلّ شيء. يزيلون غموض الحكاية وأسرارها من كلامهم. يقولون كلّ شيء عن الذئاب والعواصف والغيلان والينابيع، ولكنّهم

يطمسون الجوانب الأخرى من الحكاية: المصالح والأكاذيب والتعب. يطمسون متعة القتل الكامنة في أعماق الرّوح البشريّة، بأمل أعمق من حُبّ نقيّ. كان أبي يعرف أنّني أعرف كلّ شيء. القلب بطيء في نموّه، ولكنّ الرّوح تنطلق منذ البداية إلى أعلى نقطة يمكن أن تصل إليها. القلب يستغرق الوقت الضروريّ لنموّه. أمّا الروح فتجد نفسها مباشرة في أوج تفتّحها وإزهارها. إذا أردنا أن نتعامل مع الأطفال بأقصى لطف ممكن، بإمكاننا أن نسرّ إليهم بالأشياء كلّها، حتّى تلك الّتي لا نعرف كيف نقولها. كان أبي يأتي إلى غرفتي ليلا، بينما يراودني النعاس، ليجلس على حافّة السرير ويروي لي العالم: ذات الرّداء الأحمر ودراكولا، أوديسيوس وأوفيليا، هملت وساندريلا، دون كيشوت وبيضاء الثلج. كتابٌ كلّ ليلة، قبل وقت طويل من تعلّمي للقراءة. أضاءت لك كلماتها صورتها الحقيقيّة، وأكملت عناصر اللّوحة الّتي فشلت في رسمها: طفولتها في بوردو، المدينة المهيبة والجنائزيّة، ذهابها إلى باريس، زواجها الأوّل ثمّ زواجها الثاني، الدّعارة واللّقاء مع أهمّ مثقّفي العاصمة. مضى كلّ شيء كالحلم، إلى أن اكتشفت سرطانا يختبئ في ثديها مثل كنـز. وإلى حدود هذا اليوم، لم يتمكّن أيّ شيء من المساس بنقاء البدايات وبذاك الصّوت المحبوب الّذي يخيّم بدفئه على قلب طفلة في الخامسة من العمر: "أغمضي عينيك يا مينا، لا تقولي شيئا. أنصتي إلى خبب الخيل في قلبك. إنّهُ حصان صغير قويّ، يحمل على ظهره رسولا.

لقد خرج من أجلك منذ الفجر، وها هو في الطريق إليك. أنصتي يا مينا إلى الرياح الباردة الّتي تنفخ في معطفه وتحمرّ لها يداه البيضاوين. أنصتي إلى هدير الضوء الأحمر، إلى همهمت وجمجمته، إلى ذي اللحية الزرقاء ومفاتيحه، إلى أوديسيوس وقوسه. أنصتي إلى عوائق الحياة الموجودة في الحياة، إلى هذه الحلاوة القاتلة الكامنة في الحلم. اِعتني بنفسك يا عزيزتي، اِعتني بنفسك."
كبرت فتاة السنوات الخمس بعد ذلك، وواصلت البحث عن الذهب في كلمات المثقّفين وفي وجوه الرّجال المندهشين لرؤية شيء بضآلة امرأة عارية. ما الّذي نحبّه في أولئك الّذين نحبّهم؟ حين نحبّ شخصا، نحن نعتقد أنّنا نحبّه لذاته، لكن ما هي "ذاته" هذه؟ أين ينتهي الشخص؟ أين تنتهي حدود ذاته الّتي نحبّها؟ وأين يبدأ ما هو خارج عن هذه الذّات؟ الألم الّذي في صوتها حين تتكلّم؟ أم البـراءة الّتي في عينيها؟ ها أنتَ تعرف الآن أنّ الدفء الّذي وجدته في هذه المرأة قادم من الحُبّ الّذي وُهبت إيّاه في سنواتها الخمس الأولى. تعرف هذا مثل مَن يعرف من جمال وردة روعة الأمطار الّتي روتها. مضى على تلك الأيّام أربعون عاما. أربعون مع خمسة تساوي خمسة وأربعين. في قلب اللّوحة امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها، خلفها على اليمين، كومة من رماد الزوجيْن والعشّاق والكتب، بين ذراعيها دمية، وفي فم الدمية كلمات لا تستطيع نطقها: "اسمي أوفيليا. أبلغ اليوم عامي الخامس والأربعين. خرجتُ لتوّي من سرطان،

وها أنا أحاول التعافي منه. لقد كان الأطباء لطفاء جدّا معي. لقد نزعوا عنّي ملابسي وشعري وضحكتي الصافية. لقد أكدّوا لي أنّ هذه الأشياء ستعود قريبا. ولا أعرف ما إذا كانوا يقولون الحقيقة، فالأطبّاء مثل الكبار عندما يتحدّثون إلى الأطفال، يتحدّثون إليك حتّى لا تسمع شيئا، وهو ما يجعلك تسمع كلّ شيء. اسمي بيضاء الثلج. أبلغ اليوم عامي الخامس والأربعين. لقد ضعت طويلا في ضباب العالم الثقيل. أولئك الّذين أحبّونني، حوّلني إلى كائنة غير مرئيّة وخفيفة، خفيفة إلى درجة لا يمكن فيها أن أكون سعيدة. اسمي ساندريلا، أبلغ اليوم عامي الخامس والأربعين. قلبي ملوّث من كثـرة الأشياء الّتي التهمها. لم يعلّمني أحد كيف أميّز الحلو من المالح، واللحم من الروح، والحياة من الحلم. والرّجال الّذين تقاسموا معي الأكل كانوا يغادرونني في حال أفضل. الرّجال يغادرون دومًا في حال أفضل. وربّما يعود ذلك إلى أنّهم لا يأكلون حقّا بقدر ما يتذوّقون الأشياء على أطراف ألسنتهم وشفاههم. اسمي مينا. أبلغ اليوم عامي الخامس والأربعين. ولدتُ في بوردو ومتُّ في باريس. لقد تحسّنت الأمور الآن. وها أنا أرتاح وأعيد اكتشاف العالم شيئا فشيئا. لم يعد أبي هنا ليحدّثني عن ذلك، لكنّني سأعرف كيف أتصرّف بمفردي. لقد فهمت ما هو أساسيّ. ثمّة الشيء الّذي نرويه، وثمّة الطريقة الّتي نرويه بها. الطّريقة هي ما يصنع الفارق. الطّريقة هي فقط ما يهمّني. كلّ من قال لي: "أنا أحبّك" لم يعرف حقّا ما كان بصدد

قوله، وقاله بطريقة رديئة. لكن، في غرفة طفولتي، كان ثمّة شكسبير وأبي. شكسبير الّذي قال إنّ الحياة مجرّد قصة مليئة بالضجيج والغضب يرويها شخص أحمق. وأبي الّذي كان يقرأ شكسبير. لم أكن أستمع إلى القصة، بل إلى صوته، مستمتعة باحتلاله لعاصمة قلبي. كان صوته حقيقيًّا، ولم يكن في حاجة إلى الكلمات ليصبح هو الحياة الّتي يقولها، لم يكن في حاجة إلى الكلمات ليكون صوت الحبّ الدافئ واللّيلي المخيّم على حياتي. لقد أحرق الدواء أنسجة صدري وجميع الكتب في مكتبتي، ولكنّه لم يستطع شيئا أمام صوته الواثق والنقيّ. إنّني أقف هناك. إنّني أنتمي إلى هذا الحُبّ الّذي وُهبَ دفعة واحدة لقلب فتاة صغيرة. صرتُ أقرأ كتبا أقلّ، ولكن حتّى هذه الكتب صارت بلا جدوى: لقد فهمت من أين تأتي قصصها. فهمت ذرّة الحقيقة الصغيرة الّتي تنطوي عليها. تقول الخرافات الحقيقة عن الحبّ، وقد فهمت ما تقوله. إنّه يتلخّص في جملة واحدة. ولو كنتُ فيلسوفة لكتبتها على هذا النحو: إنّ ما ينقذنا لا يحمينا من أيّ شيء، ومع ذلك فهو ينقذنا. لكن، بما أنّني لم أبحث عن الحقيقة مطلقا باعتباري فيلسوفة، بقدر ما بحثت عنها باعتباري موسيقيّة مثلما فعلت في أعوامي الخمسة الأولى عندما أوليتُ اهتمامي بالصوت أكثر من اهتمامي بالكلمات الّتي يقولها هذا الصوت، سأقول هذا الجملة على هذا النحو، إنّها الجملة نفسها: اِعتني بنفسك يا صغيرتي، اِعتني بنفسك يا حبيبتي، اِعتني بنفسك.

## نهضتُ من الطاولة في منتصف الأكل

تتّصل بكَ في التاسعة مساءً. تتـردّد بعض اللحظات قبل أن تجيب: مازلت تخاف من الهاتف،.وتخشى هذا الغزو المباشر. لا يمكننا قول شيء على الهاتف. لا يمكننا أن نسمع منه شيئا غيـر الخشخشة أو الإعلام بحادث أو خبـر حزين. لا يمرّ عبـر الهاتف غيـر التّافه أو المأسويّ، غيـر الثرثرة الّتي لا تنتهي، أو الموت المفاجئ الّذي يقال في كلمة واحدة. وبين هاذين الأمرين، لا يوجد شيء. مرّة، حاولت أن تسرّ بموقفك من هذا الكلام الأصمّ إلى شخص تثق به، فأجابك: ما هذه السذاجة؟ ألا ترى كيف يسير العالم من حولك؟ لا يوجد أيّ معنى لما قُلته يا صديقي. أُنظر إلى الصناعة: لا يتم تقرير أيّ شيء لا يمر عبر الهاتف. سيكون من الحمق أن يتبادل النّاس الرسائل للقيام بصفقة تجاريّة. انظُر من حولك. تخيّل جحيم أن تملأ الأحصنة

الطّرق. تخيّل عددا مهولا من الرُّسل يحملون رقوق الرسائل تحت معاطفهم. تنصت إليه مبتسما وصامتا، لأنّك لطالما عانيت من عدم القدرة على تقديم ردود بارعة وسريعة، وها أنت بعد أسبوع من هذه المحادثة، تعثر على الإجابة المناسبة: إذا كان من الممكن أن نتفاوض على عقد أو أن نوافي شخصا بأخبارنا أو أن نقدّم طلبيّة، إذا كان هذا كلّه ممكنا عبر الهاتف، فهنالك شيء واحد على الأقل مستحيل التحقّق بهذه الطريقة، وهذا الشيء المستحيل هو الشيء الوحيد الضروريّ بالنسبة إليك، والشيء الوحيد الّذي لا غنى عنه في الحياة: رسالة حُبّ. لا يمكننا كتابة رسالة حُبّ عبر الهاتف. لا يعني ذلك أنّ الصّوت غير كاف للقيام بهذا، بل لأنّه على عكس ذلك أكثر ممّا يتطلّبه الأمر. لا يمكننا أن نتحدّث عن الحُبّ إلا في أعظم لحظات خلوتنا، تلك الّتي ينقصنا فيها الهواء مثلما ينقصنا فيها كلّ شيء. بالأمس، كنّا نعرف ذلك. بالأمس، في القرن الثاني عشر. كنّا نعرف ذلك عن ظهر قلب عندما كنّا نتغنّى بالحُبّ عن بُعد[2] وبالملكة الغائبة. المسافة هي الّتي تصنع عذوبة الحب. والغياب هو الّذي يروّض العاشق. النساء يعرفن هذا الأمر إلى الآن. يتحدّثن عن الحُبّ لظلالهنّ ومراياهنّ وفساتينهنّ ولا يقلن ذلك للشخص الّذي تشتعل من أجله كلّ هذه الأضواء ويُجزّ كلّ هذا العُشب في غيابه. كلمّة الحُبّ هي كلمة خفيّة. لا

(2) عنوان رواية للأديب اللبناني أمين معلوف.

نستطيع لا قولها ولا سماعها. وعندما يحدث ذلك، لا يتعلّق بالأمر بالحُب وهو يرقص في قلوبنا، وإنّما بالحُبّ وهو يفكّر في عقولنا. عندما يحدث ذلك، تتحوّل هذه الكلمة إلى عقد شؤون عاطفيّة، وإلى تكرار بائس، وضجيج عابر بين الثرثرة التافهة والصّمت الميّت. لا. لا توجد طريقة للتحدّث على الهاتف – خاصّة عندما تكون في الحالة الّتي كانت عليها في تلك الليلة: متلعثمة ومتردّدة وغاصّة بالدّموع بين الكلمة والأخرى. كانت تتّصل بك في عديد المناسبات لتحدّثك عن كتاب أو طفل. كانت تدرّس أطفالا في جميع الأعمار، وتلتهم كتبا من جميع السّماوات مفضّلة منها كتب الشّعر الألمانيّ، الّتي ترجمت بعضها بحبّ إلى أقرب ما يكون إلى صوتها، وإلى مهد أنفاسها وبيت لغتها الأمّ. هذه الليلة، لم تكن ترغب في محادثتك عن كتاب وإنّما عن شخص يصنع الكتب. أرادت محادثتك عن كاتب، بل عن ذلك النّوع الفريد من الكتّاب، النّوع الّذي يمثّله الفلاسفة. إنّ الشغف بالأفكار هو شغف طفوليّ غاضب. والفلاسفة يشبهون إلى أبعد حدّ الأطفال الصّغار، وهم يمارسون قوة رغبتهم في تركيب المكعّبات الملوّنة الكبيرة مثل أيديهم. يشيّدون ويبنون ثمّ يهدمون كلّ شيء بضربة يد واحدة. أنا أوّلا. يصرخ طفلُ العامين من العمر وهو يشيّد حائطا بمكعّباته. أنا في كلّ مكان. يغمغم المفكّر وهو يرفع إلى السّماء سعادته بفكرة من صنع يديه. غير أنّ هذا الشّخص الّذي تحدّثك عنه، مات هذا اليوم، ولن يكون قادرا

على قول هذا النوع من الأشياء مجدّدًا، بل إنّه لم يعد يفعل ذلك منذ وقت طويل قبل وفاته، منذ تلك اللّيلة الّتي خنق فيها زوجته بيديه الطويلتين، اليديْن الّذيْن يواجه بهما بياض الأوراق ويفتح بهما الكتب الثّمينة. أنت تعرف هذه القصّة، فقد تصدّرت جميع الصحف وقتها. كان الخبر عبارة ثلاثة أسطر. ثلاثة أسطر حول مفكّر كبير كان بمثابة إحدى شموس الثقافة في جيله، ثم انطفأ فجأة في كسوف مفاجئ، واختفت النجوم من ليله. سبق الطبُّ القانون، ومنع التشخيص الطبّي أيّ محاكمة ممكنة: اكتئاب خطير يجعله غير مسؤول بطريقة مباشرة عمّا فعله. مضت عشر سنوات بعد الحادثة. عشر سنوات قبع فيها في أحد المستشفيات ثمّ في دار لرعاية المسنّين، وخيّم الصّمت على الجميع، مسيّجا نوافذ المدينة. عاد العالم في الصحف إلى رتابته، لأنّ صفحة الأحداث المتفرّقة مخصّصة لتكون مقبرة للفقراء. من النّادر أن ترى مثقّفا يدخل هذه المقبرة. لأنّ المثقف لا يكون فقيرا أبدًا. وحتّى عندما تفرغ جيوبه من الأموال، سيعرفه الثريُّ من طريقة لباسه. يبرز المثقّف عندما يتكلّم. فالكلام مثل المال، يحقّق الرخاء. بل إنّ الكلام يحقّق الرّخاء أكثر من المال. إنّ من يملك الكلام يملك العالم. انظروا إلى ملابس الفقراء. انظروا إلى أحذية الفقراء. انظروا إلى منازل الفقراء. وبعد أن تتأمّلوها جيّدًا، ستعرفون أنّكم لن تعثروا على أيّ فقر طالما لم تنظروا إلى وجوه الفقراء أمام كلام أولئك الّذين يعرفون ويقرّرون ويحكمون. لا يسمع الفقراء شيئا

ممّا يقوله لهم أسيادهم، لأنّهم يعتقدون ببساطة أنّ هذه الكلمة الواثقة من نفسها تسرق منهم العالم، وأنّ الفخامة الّتي تقال بها الكلمات والظّلم الّذي يتعرّضون إليه مترابطان أيّما ترابط. لا يتعلّق الأمر هنا بالمعرفة في حدّ ذاتها، بل بتلك الرّوعة الفتّاكة الّتي تكون عليها الكلمات عندما لا تكترث بشيء غير نفسها، وبرعب الكلمات وهي تتبختر في بذخ تاركة الحياة خلفها. لقد بدأ هذا الأمر مع الملوك، عندما دفعوا بهذه الطّريقة في الحديث دون المخاطرة بأي كلمة قد تُنسب إليهم وقد لا تكون في مكانها إلى أقصى حدّ. فعلوا ذلك عندما قرّروا أن لا يتكلّموا إلّا بضمير المتكلّم الجمع الّذي حوّل كلامهم إلى جمل لا تنتهي من "لقد قرّرنا أن..." و"نحن نأمر بـ....". هذه المسافة الّتي لا معنى لها بين الشّخص وما يقوله هي مصدر أيّ سيطرة على العالم وكلّ تخريب للرّوح. لقد سبق أن التقيت بفلاسفة واكتشفت لديهم في أكثر من مناسبة هذه الهوّة الواسعة بين العبارة الباذخة وشحوب الحياة المختنقة والمحرومة من الهواء تحتها. إنّ ما أدهشك وأنت تقرأ الجريدة ليس معرفة الخسارات المتتالية الّتي واجهها الفيلسوف، وإنّما اكتشافك للطريقة العنيفة الّتي انتهت بها حياته كما لو كان سهما مشدودا إلى وتره لسنوات طويلة، ثمّ انطلق فجأة بضربة واحدة ساحقا الكتب ومدمّرا الحُلم والحياة. كان ذلك بمثابة تكملة للقصّة الّتي حدّثتك عنها هذا المساء في الهاتف – قصّة سنوات من الهجران، واحتقار الزملاء، وابتعاد الأصدقاء،

والحرمان من الحداد. كانت قد التقت به عديد المرّات في صحرائه. ومرّة، استضافته في بيتها ليتناول معها الغداء. كان هادئا، هادئا جدّا، وجهٌ مرسوم رسمًا، وعينان ببريق مطر خفيف، وصوت دافئ إلى أبعد حدّ، دافئ دفء من يفضّل العقاب على الكآبة والعزلة على المسكّنات، دفء مَن ابتلع في لقمة واحدة موته وحياته معًا. قالت: كنتُ أنظر إليه وهو يأكل. كنتُ أنظر إلى يديه الرقيقتيْن اللّتيْن قتل بهما زوجته. نهضتُ من الطاولة في منتصف الأكل. اتّجهت إلى الحديقة واقتطفت وردة لأهديها إليه وأضعها بين هاتيْن اليدين. وكما هو الحال في كلّ مرّة يحدث فيها شيء مشابه بين شخصيْن، أنت تعرف جيّدًا أنّ التضحية الكبرى لا تقع على كاهل ذلك الّذي يقدّم الهديّة، بل على كاهل ذاك الّذي يأخذها. كانت وردة صفراء. أخذها معه إلى غرفته الصغيرة: سرير وطاولة وحوض غسيل. وبعد أشهر من ذلك اليوم، ظلّت الوردة في مكانها، ضوءًا شاحبا يمكث في كأس صغير. لم يعد يزوره أحد في النهاية. لم تعد تصله أيّ رسائل. ولم يبق لديه شيء غير هذه الوردة المتحجّرة في غرفته، وغير هذا الضوء المكفّن مثل مومياء. لماذا نكتب الكتب؟ لماذا نستنزف قوّتنا ونهدر ساعاتنا في كتابة كتاب بعد الآخر، وفي بناء سيرة ذاتيّة في الفكر أو الإبداع؟ لماذا نكتب كتابا على حساب النّوم والحب وكلّ شيء، وبمجرّد أن ننتهي منه، نمضي إلى الكتاب الّذي يليه؟ يقول الفلاسفة: نفعل ذلك من أجل وضوح الفكرة. يقول الشعراء: من أجل جمال

الفكرة. غير أنّهم حين يقولون ذلك، يكونوا قد تأخّروا عن الإجابة الّتي تسبقهم دومًا آتية من كلّ صوب وحدب: يفعل النّاس هذا من أجل أن يكونوا محبوبين. نعم، يفعلون ذلك من أجل إحساسهم بالمجد الّذي يغذّيه حُبّ الناس لهم. لطالما سمعتَ هذه الإجابة. وهي تنطبق عند الجميع على الكتب مثلما تنطبق على بقيّة الأشياء في الحياة. إنّها سبب قيامنا بكلّ ما نقوم به. نحن نجمع المال وننجب الأطفال ونكتب الكتب حتّى تمكّننا الأموال والأطفال والكتب من الحصول على الحُبّ الّذي ينقصنا. ويشمل ذلك بطبيعة الحال حتّى الآباء الّذين يتسوّلون لأبنائهم القوّة كي يعيشوا، وحتّى الكتّاب الّذين يهبون أصواتهم للحبر للاحتفاء بقبلة ضوء. نعم، لطالما سمعت هذه الإجابة، ولطالما بدت لك خاطئة أو بالأحرى حقّا أريد به باطل، قد لا يكون مناسبا إلّا للآباء السيّئين والكتّاب الرديئين. لا يمكننا أن نفعل شيئا حتّى نكون محبوبين – وإلّا لن نعثر إلّا على الأشياء السيئة والكتب الفاشلة والأطفال المسوخ. الحُبّ لا يُقاس بما نفعله. الحُبّ يأتي بلا سبب ولا حجم محدّد مُسبقا. الحُبّ يأتي هكذا ثمّ يذهب بالطريقة نفسها. عندما يكون الحُبّ موجودا، لا يوجد شيء آخر بإمكاننا فعله. وفي غيابه، بإمكاننا أن نكتب إذا أردنا، الكتابة. ومع قليل من الحظّ، قد تلامس الكتابة الحقيقة، فنستودعها في كتاب ثمّ نضعه على الرفّ إلى جانب إخوته، وهذا كلّ ما في الأمر الّذي لا جدوى منه أصلا. نحن نعرف جيّدًا أنّه

لا جدوى من الكتب، وأنّ الكتابة وعدم الكتابة سيّان، وأنّهُ لا شيء أهمّ من هذه الوردة المقطوفة بعد نهاية العالم، هذه الوردة الصفراء النائمة في يدين نحيفتيْن. أخيـرا، ها قد جاءت كلمة حب حقيقيّة، ها قد جاءت فكرة حقيقية، ها قد جاءت كلمة في محلّها، لتُقدَّمَ في صمت وتؤخذَ في صمت: وردة ذابلة في الكأس المخصّص لفرشاة الأسنان. ضوء يرتجف إلى النهاية في الغرفة الصغيرة، مع سرير وطاولة وحوض غسيل.

# اللّامأمول

لقد عدتُ لتوّي من برُوتانيْ يا حبيبتي. بروتاني جميلة كالطفولة: الملائكة والشياطين يسيرون هناك يدًا بيد. لقد رأيتُ حجارتها ومياهها وسماءها ووجوهها، وكان اسمُكِ في كلّ مكان يغنّي في الحجارة والمياه والسّماء والوجوه.

لقد مضى وقت طويل لم أعد أخرج فيه دون أن تكوني معي. صرتُ أحملكِ في أبسط مكان يمكن أن تختبئي فيه، كأن أخبئك في فرحي مثلا كمن يخبّئ رسالة في وضح النّهار.

ثمّة في بروتاني كنائس كثيرة. كنائس بعدد الينابيع والشّياطين تقريبا. وفي أثناء زيارتي لإحداها، رأيتُ سفينة فسيحة مثل ذراعين مفتوحتين. لم تكن في السفينة أشرعة ولا دقل. لم يكن فيها شيء غير الشّموع، كما لو كانت لعبة أطفال، وعلى هيكلها كُتبَت باللّون الأزرق هذه العبارة: في يد الله. تذكّرتكِ مباشرة: هذه السفينة الصغيرة هي حياتك يا حبيبتي، هي أنتِ. إنّها نقاء

قلبك الّذي غرق ألفًا وألف مرّة، ثمّ عادَ ليركب الأمواج ألفًا وألفَ مرّة حاملا معه ذلك الضّوء الّذي يحترق به ويغتسل. إنّني مجنون بهذا النّقاء، هذا النّقاء الّذي لا علاقة له عندي بأيّ معيار أخلاقيّ، لأنّهُ ليس سوى الحياة في ذرّتها التكوينيّة الأولى، ولأنّه ليس سوى حقيقة الوجود البسيطة والبائسة في عين كلّ من يقف على حافّة مياه موته الأسود، منتظرا مصيره وحيدًا، بل وحيدًا إلى أبعد حدّ، ووحيدًا إلى الأبد.. النّقاء هو الشيء الأكثر انتشارا على وجه الأرض. إنّه مثل كلب، في كلّ مرّة لا نتّكئ فيها على شيء إلّا قلوبنا الفارغة، يعود ليربض باسطًا ذراعيه تحت أقدامنا، مُصرًّا على مرافقتنا.

إنّهُ شيء أنت علّمتني إيّاه، يا روحي. لقد علّمتني أشياء كثيرة. في البداية، أسرتني داخل ضحكتك، ثمّ أغلقت عليّ الباب هناك، مثل تلميذ يجبرونه على الدّراسة والبقاء في القسم في شهر أوت، ثمّ أعدتني إلى العالم مع واجب كتابتها كما هي: سوادٌ مرعب يخفي نقاءً معجزًا.

في القطار الّذي أخذني إلى بروتاني، قرأتُ كتابا لكاثرين دي سيان. إنّها قدّيسة من القرن الرابع عشر. لم أعرف عنها أشياء كثيرة، باستثناء أنّه كان من عادتها أن تخبر آباء الكنيسة والأقوياء بحقيقتهم، بذاك العنف الّذي يكون لدى النّساء عند الدّفاع عن أطفالهنّ. أمّا طفلُ القدّيسات الأبديّ، فهو الحبّ المجنون، الّذي صار مجنونا لأنّه لم يعرف من عالم اللّاشيء شيئا غير نفسه.

كانت حركة القطار تحاول إبعادي عنك، بينما كانت حركة هذه القراءة تقرّبني منك: القدّيسات يشبهنك بطريقتهنّ في الضياع ببهجة وفي إلقاء قلوبهنّ من أوّل نافذة مفتوحة تعترضهنّ. القدّيسات هُنّ أجمل النّساء على الإطلاق. إنّهنّ جميلات بهذه القوى الّتي تتركهنّ يواجهن مصيرهنّ وحدهنّ. أجدُ في أصواتهنّ صمتًا شبيها بذاك الّذي أجدهُ في شهادات العائدين من معسكرات الاعتقال، كما لو أنّ الألم والحبّ في أقصى تجلّياتهما ينقضّان معا على حبالهم الصوتيّة. يشتركُ أولئك الّذين حُلقت رؤوسهم مع هؤلاء اللّائي حُرقت قلوبهنّ في شيء: فقدان ألسنتهم إلى الأبد. بإمكاننا أن نروي لكم ما حدث، يقول الأسرى العائدون من الحرب، لكننا إذا فعلنا، سيتضاءل فهمكم شيئا فشيئا كلّما تقدّمنا في الرواية، ولن يكون بإمكانكم سماع ما لا يمكننا قوله أبدًا. نحنُ ننادي، تقول القديسات. ننادي ذاك الّذي يقف على الجانب الآخر من قلوبنا، ولن نعرف أبدًا ما إذا كان يسمعنا، أو ما إذا كان موجودًا أصلا. هاتان الحالتان تؤدّيان إلى اختفاء اللّسان لأنّهما تلمسان أضعف جوانب الحياة الإنسانيّة، ولأنّ هذه الحياة بحضورهما لا تكون شيئا آخر غير ألم محض أو فرح خالص. وفي هاتين الحالتيْن، يذوي الجوع في مكان مجهول، ويمكث الغياب في مكانه متعبا من نفسه. إنّ اختبار الحياة الضعيفة هو أكثر اختبار راديكاليّة على الإطلاق.

هذه أحد الأشياء الّتي تعلّمتها وأنا أنظر إليكِ. بإمكاني أن

أمضي حياتي كلّها وأنا أنظر إليك: لا أحد يملّ من الاستمتاع بمشاهدة الذّكاء أبدًا. حركة يديْك وأنت تمسحين شفاه طفل أو تقلّبين صفحات كتاب لن تجدي الوقت لقراءته. طريقتك في القيام بعمل على أكمل وجه على الرّغم من كونه يكلّفك مبادلة وحدتك بثلاث مرّات من اللّاشيء من المال. كلّ شيء فيك يعلّمني بعمق وإلى أبعد حدّ. وإذا أردتُ أن أعرف ما تكون عليه الشجاعة ونبل الحياة، يكفي أن أنظر إليك وأكتب ما أراه.

صرتُ أكتب منذ صرتِ تقرئين لي، منذ تلك الرّسالة الأولى الّتي لم أكن أعرف ما تقوله، تلك الرّسالة الّتي لم يكن لها معنى إلّا في عينيْكِ أنتِ. وأبدًا في حياتي، لم أكتب شيئا أكثر من الجمل الثلاث الأولى من هذه الرّسالة: *أن لا نصدّق شيئا. أن لا ننتظر شيئا. وأن نأمل أنّ شيئا مّا، ذات يوم، سوف يأتي.* غير أنّ الكلمات تأتي دوما متأخّرة عن حيواتنا. وقد كُنتِ دومًا تسبقين ما آمله منك. لقد كنتِ دومًا امرأة اللامأمول.

في بروتانيْ، تأمّلتُ الوجوه والأمواج والسماوات، ولم أشعر أبدًا بجمال هذه الحياة المنذورة للموت كما شعرت به هذه المرّة: علينا أن نضيء أيّ حُبّ يعترضنا في كلّ لحظة نعثر عليه فيها. علينا أن نضيء أيّ حبّ متروك لوحدته القاسية الّتي لا عزاء له فيها. علينا أن نتعلّم كيف نحتسب الوجوه وجهًا وجهًا، والأمواج موجة موجة، والسماوات سماءً سماءً، وأن نقدّم لكلّ وجه وكلّ موجة وكلّ سماء الضوء الّذي تستحقّه في هذه الحياة

المظلمة.

كلّ الشرور في هذه الحياة تأتي من خطإ في الاهتمام بما هو ضعيف وزائل فيها. ليس للشر سبب آخر غير لامبالاتنا، ولا يمكن أن ينشأ الخير إلّا من مقاومة هذا السبات، ومن أرق يصيب الرّوح ويأخذ انتباهنا إلى أبعد نقطة متوهّجة فيه، حتّى وإن كان هذا النّوع من الاهتمام الخالص مستحيلا بالنسبة إلينا: وحده الله يستطيع أن يكون حاضرا دون توقّف لرؤية الحياة عارية، ودون أن يهزم حضوره نومٌ أو فكرة أو رغبة. وحده الله بإمكانه أن يكون على هذه الدّرجة من نكران الّذات، حتّى يهتمّ بلا هوادة بشأن الحياة الّتي تضيع على نحو رائع مع كلّ ثانية تمرّ. الله هو اسمُ ذاك المكان الّذي لم يخيّم عليه ظلام اللامبالاة والإهمال. الله هو اسمُ تلك المنارة الّتي تقف وحيدة على حافّة ساحل هائج. وربّما يكون هذا المكان فارغا، وربّما تكون هذه المنارة مهجورة دوما. غير أن ذلك ليس له أيّة أهميّة على الإطلاق: علينا أن نتصرّف كما لو أنّ هذا المكان ممتلئ، وكما لو أنّ هذه المنارة آهلة. يجب أن نخرج في مساعدة الله بينما يقف عندَ صخرته، وأن ننادي على الوجوه وجها فوجها والأمواج موجة فموجة والسماوات سماء فسماء – دون أن ننسى وجهًا أو موجة أو سماء واحدة.

إنّ ما أقوله الآن تعلّمتهُ منكِ. تعلّمتهُ من النظر إلى حياتك البسيطة. تلك الحياة الّتي يعرفنها النّساء من خلال ألم المعرفة

والحاجة إلى الألم وإلى مكان مّا في هذا العالم، والّتي لا يستطيع الرّجال الإنصات إليها، مثخنين بكفايتهم من الرّجولة ومحتجزين داخل قدرتهم على السيطرة على ما يظهر من العالم، وما يظهر منه فحسب: كلّما اقتربنا من الحياة الضعيفة، اقتربنا من الخير الخالص، دون أن نأمل يومًا الوصول إليه: لا أحدَ ملاكٌ في هذه الحياة. القدّيسات تعرفن هذا الأمر جيّدًا، مثلما تعرفن حقيقة أنفسهنّ باعتبارهنّ النّساء الأكثر ضياعا – ضياعٌ يمكن قياسه بنشيد يمتدّ إلى ما لا نهاية له. لا أحدَ ملاكٌ في هذه الحياة باستثناء الحياة نفسها.

أنا الّذي يسافر قلبه هشّا ومعجونًا مثل سلّة فراولة، لم أتوقّف أبدًا عن تذوّق هشاشة الأيّام وهي تمضي إلى حتفها زاهية، هشاشة الأيّام الّتي هي عنوان آخر من عناوين النقّاء، ومن عناوينك أنت، يا حبيبتي.

إنّكِ موجودة في كلّ مكان، وإنّني أنظر إلى العالم بعينيك الصافيتيْن: إنّه مثل جسر خشبيّ يمتدّ بيننا منذ الأزل، وسيمتدّ بيننا إلى الأبد.

الهواء الّذي داعب وجنتيّ بينما أتنزّه قرب المحيط، كان أنتِ. لقد جاء بك بأكملك: من الصعب أن أفسّر لك هذا ولستُ متأكّدا من وجود أيّ حاجة إلى تفسير ما نعيشه. وحتّى الحياة، تجعل من نفسها معنى نفسها حتّى تكون حيّة.

لم تدم الرّحلة سوى أربعة أيّام. أربعة أيّام يبدو لي أنّه بإمكاني أن أستغرق سنوات طويلة وأنا أحدّثك عنها، لأنّها كانت القليل الذي وهبني كثيرا من الأشياء لأراها. والقلّة القليلة هي عنوان الثراء والوفرة بالنسبة إليّ.

ثمّة وحش برّي في قلبي لا يخرج إلا في اللّيل ولثواني قليلة فحسب. يفترس ما تبقّى ممّا أهمله النّهار من أوراق أو وجوه أو كلمات، ثمّ يعود بسرعة إلى جحره بعد أن يكون قد أخذ ما يكفيه من الطّعام لقرنيْن من الزّمن. صحيحٌ أنّهُ يتغذّى على أشياء مختلفة – رحلة من هنا، وقراءة من هناك، وصمت في بعض الأحيان – ولكنّه يفعل ذلك دومًا بالفرح نفسه، الفرح الّذي لا يتوقّف عن البحث عنه ويصل إليه في بعض الأحيان، الفرح الرائع، الفرح الخفيف الّذي يشعر به طفل ينطّ رافعا يديه لملامسة الشّمس.

لا أتخيّل أبدًا فقدانك، إلّا عندما أفقد هذا الفرح البسيط الضروريّ لأتمكّن من مجرّد التنفّس. وهذا يحدث أيضا. وبطبيعة الحال، ليس عليه أن لا يحدث. وحتّى أصف لك هذه الحالة، عليّ أن أحدّثك عنها كما لو كانت مرضا: عندما يأتي هذا المرض، تنخفض حرارة الحلم لعدّة درجات. يتثاقل نبض الرّوح شيئا فشيئا. ينطفئ الفكر. ولا يبقى شيء غير هذه الحياة الظاهرة الّتي لم تكن يومًا حياةً بالنّسبة إلى أحد. إنّهُ شيء يشبه عدوى فيروسيّة تصيب الرّوح، فتتسبّب لي بنقص في الإيمان، لا بالله، ولا حتّى بنفسي. إنّه نقص في الإيمان شبيه بأن أقول: نقص في السكّر أو

الكريّات الحمراء في الجسم.

إنّ ما يُجرحُ في هذه السّاعات هو طعم الحياة، وحُبّنا للحياة. الحبّ الّذي في دواخلنا هو الّذي يُجرح دومًا. الحُبّ هو جرحنا الأبديّ الّذي يؤلمنا حتّى في اللّحظات الّتي نعتقد فيها أنّه لم يعد ثمّة شيء يؤلمنا.

لقد علّمني التأمّل المتجهّم، في أيام الطفولة المبكّرة، لسقف غرفة أو حجارة في الرصيف، أشياء عن الجحيم أكثر ممّا تعلّمته كتب الحكمة الّتي قرأتها لاحقا كلّها. الجحيم هو هذه الحياة عندما نتوقّف عن حبها. إن الحياة بدون حبّ هي حياة مهجورة، بل إنّها مهجورة أكثر بكثيـر من شخص ميّت.

لكن حتّى في هذه الساعات، لا أفقد تماما. إنّك، يا حبيبتي، الفرح الّذي يتبقّى لي عندما لا يبقى أيّ فرح.

سأخبرك يومًا مدى السرعة الّتي أنساك بها مع أوّل وجه يعترضني، ومدى السرعة الّتي أجدك بها فيه بمجرّد مواصلة النظر إليه.

إنّني أبتسم بينما أكتب هذه الرسالة، وربّما لم أكتبها إلّا من أجل هذه الابتسامة الّتي تمنحينني إياها. ماتزال لديّ أشياء كثيرة لأخبرك بها. ربّما سأضعها في الكتب القادمة: لم أكتب في حياتي شيئا واحدًا لم يكن إليكِ. وها أنا أواصل الكتابة على أمل أن تنقذني حماقة الحُبّ من غباء الأدب.

هيّا، لتذهبي الآن، لتذهبي أيّتها السفينة الصغيرة الّتي تتقاذفها الأمواج، لتذهبي لإفراغ حمولتك من الضّوء.

أعانقك.....

كريستيان بوبان

# اللّامأمول

عندما أصدر الشّاعر الفرنسيّ جاك بريفير Jacques Prévert (1900 - 1977) كتابهُ المعروف "كلمات Paroles" سنة 1946، انقسمت السّاحةُ الأدبيّة والنقديّة الفرنسيّة إلى موقفيْن متناقضيْن: اعتبر الأوّل أنّ الكتابَ مجرّد يوميّات أو مواقف ذاتيّة ساخرة لا علاقة لها بالكتابة الشعريّة، واعتبر الثّاني أنّ البساطة الّتي كُتبت بها نصوصه تُخفي وراءها وعيًا مكثّفا بالكلمات والأشياء وهندسة دقيقة تجعلها في خانة الشّعر. وقد قاد هذا النقاش جيلا بأكمله إلى إعادة النّظر في مفهوم الشعريّة برُمّته.

بعدَ خمس سنوات من هذا الحَدث الثقافيّ، وُلد كريستيان بوبان ليكون واحدًا من أولئك الّذين يعيدون طرحَ أسئلة الكتابة الأدبيّة داخل أفق النصّ المفتوح والتخلّص من القواعد الجاهزة والمصادرات النقديّة الخانقة لأيّ نفس إبداعيّ. لذلك، سيكون عليكَ، وأنت تتهيّأ لقراءة هذا الكتاب أن تتخلّص من جميع أحكامك المُسبقة عن الكتابة. وإذا كان الشّعر بهلوانا مغامرًا، فإنّ السّرد هنا هو حبلهُ النّحيف الممتدّ في الحكاية، ولكنّهُ حبلٌ غير مرئيّ، ليس لأنّهُ شفّاف، بل لأنّ الدهشة الّتي يتركها البهلوان في أذهاننا وهو يقطع طريقه في الهواء تجعلنا غير منتبهين إليه. وخوفا من السّقوط، ننسى دومًا الحبل الّذي أنجانا من السّقوط.

9 784421 855418
WWW.PAGE-7.COM